الإسلام
من البساطة إلى التركيب

الإسلام من البساطة إلى التركيب

الدكتور جاسم السلطان

الطبعة الأولى

1446 هـ – 2024 م

ISBN: 978-625-98088-9-5

جميع الحقوق محفوظة

الصفوة للدراسات الحضارية
Safwa Cultural Studies"SCS"

www.safwacenter.net
contact@safwacenter.net
safwacultural
+90 535 781 99 57

Safva Araştırma Ve Yayıncılık Hizmetleri Ticaret Limited Şirketi
SAFWA For Research and Publishing Services Trade Limited Company
Sicil No: 313638/5

تصميم وإخراج فني

ربيع معروف مراد

تصميم الغلاف

رفاه شرف الدين

Baskı Cilt: ERG Matbaa maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 Istanbul

الإسلام
من البساطة إلى التركيب

الدكتور جاسم السلطان

تدقيق

أ. محيي الدين قبرصلي د. إياد محمد صبحي دخان

الطبعة الأولى 2024

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

الفصل الأول: الموضوعات الأساس 7
الرِّحلة والصُّحبة 7
ما الدين؟ 9
البداية كلامٌ معقَّدٌ 11
الغيب حاضرٌ في كل تفسيرٍ 12
ما الإسلام؟ 14
﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: 17
﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أول الوحي، ولماذا أقرأ؟ 21
سورة الفاتحة 23
ثلث القرآن 24
العقيدة والشريعة (الإيمان والعمل الصالح) 26
الإنسان (الذكر والأنثى) 27
الإيمان والكفر.. أليس حاجزاً؟ 29
قائمة الإيمانيات 30
ودور الرسل محدَّدٌ في القرآن الكريم 30
اليوم الآخر 30
والإنسان في القرآن 31
القضاء والقدر 31
الطريق إلى الإسلام؟ 32
العمل الصالح 34
النسق القرآني 35

- النسق القرآني ومشروع الإنسان 36
  - الطبقة الأولى: المقولات الكبرى المؤسِّسة 37
  - الطبقة الثانية: شروط التعايش بين المختلفين 37
  - الطبقة الثالثة: قواعد الحوار بين المختلفين (الدعوة) 38
  - الطبقة الرابعة: الحرب بداية ونهاية والعودة إلى السلم 39
- يوم جديد 40
- مقاصد الشريعة في الفرد 40
- أمّهات الأخلاق 42
- لقاء جديد 44
- يوم جديد 49
- الصلاة 52

الفصل الثاني: تحدياتٌ تواجه المسلم اليوم 55

- أ. التاريخ والصراع حول الأشخاص والأحداث 56
- ب. الفِرَق الدينية: 58
- ج. الأحزاب الدينية: 58
- د. الصراعات الفقهية: 59
- هـ. أوضاع العالم الإسلامي والمسلمين: 61
- وفي الختام 62

الفصل الأول: الموضوعات الأساس

الرِّحلة والصُّحبة

ليس هناك عندي أجمل من صباحٍ جميلٍ في مقهىً صغيرٍ تطلُّ نوافذه على حركة الشارع والعابرين، وتسمع أصوات الحياة ترتفع لأناسٍ يذهبون إلى أعمالهم، وطلَّابٍ يتجهون إلى مدارسهم، وآخرين يتريضون مشاةً أو جرياً في الشوارع، وأصوات السيارات، وحركة القطارات، وصوت حبَّات المطر على نافذة المقهى، ورائحة الخبز الساخن، والقهوة تكسوها الرغوة، ويفوح منها عبقها المعهود، وأن تقابل دفء المكان ببرودة الخارج.

لهذا أحبُّ السفر، ولهذا أجدني بين لندن وإسطنبول، رغم جمال مدنٍ كثيرةٍ زرتها في الشرق والغرب، ولكنَّ ذلك المزيج العجيب من الحركة والسكون ومن الزحمة والعزلة لا أستشعره إلا في هاتين المدينتين.

لكن، لو حسبتُ أجمل اللَّحظات.. أهي نتيجة المكان، أم الإنسان؟ لَقلت: الإنسان.. فما لم يكن هناك صاحبٌ تطارحه الحديث، وتلتقي ذائقته بذائقتك، تناقشه ويناقشك، تتجاذب معه أطراف الحديث، وتنتقل معه في جوانب الحياة، ربما الرياضة، أو الفن، أو الأدب، أو السياسة، أو الاقتصاد، أو الأسرة.. إلخ.

وفي سنِّ السبعين وجدتُني قد قرأت الكثير، وعشت الكثير، ولا زلت شغوفاً بالمعرفة ومحاولة التعرُّف على هذا العالم المذهل، ولا زال الكتاب يشدُّني وتتوارد إلى ذهني الأسئلة، وأتساءل: ما الذي اختلف عليَّ منذ وقعت في غرام القراءة وأنا ابن الصف الثالث الابتدائي؛ حيث كنت أتسلَّل إلى مكتبة أختي لأطالع القصص واختياراتها من الكتب، وأستعرض في ذهني رحلة الحياة التي امتلأت بالحوارات التي لا تهدأ مع الذات والغير.

وأحمد الله أن عشت حتى اللحظة.. لكن، هل تغيَّر شيءٌ فيَّ منذ تلك اللحظة؟

قلتُ: لم يتغيَّر الشغف، ولكن.. في مرحلة الشباب المتأخّر في السبعينات، أبدو أكثر هدوءاً وقدرةً على الاستماع، أصبحتْ كفَّة الاستماع للآخر أكثر حضوراً.. لكن، لماذا؟

بدا لي أنه في مراحل التشكُّل الأولى يغلب على الإنسان أنه يعرف كل شيءٍ.. وفي أوسط العمر يعتقد أنه ربَّما يعرف أشياء.. وفي الشباب المتأخر (بعد الخمسين..)، يريد أن يعرف ما الذي يدور من حواراتٍ جديدةٍ أو مستجدَّةٍ؛ ليحدِّث معارفه التي تتقادم كلما تطوَّر هذا العالم، إنه يعيد اكتشاف ذاته من خلال من حوله، ما الذي فاته؟ وما الذي عليه أن يتعرَّف إليه؟ وما الذي يحتاج أن يراجعه؟

صحبة السفر تتنوَّع، فقد يكون صديقٌ أو قريبٌ اعتدّتَ السفر معه.. أو صديقٌ اعتدتَ لقاءَه.. أو لقاءهم في بلدٍ معيَّنٍ من المقيمين في تلك البلاد.. والمقيمون في بلادٍ جديدةٍ لكلٍّ منهم قصةٌ يمكن أن تُروى.. واهتماماتٌ تجعل اللقاء ممكناً، فبين رياضة المشي وزيارة المكتبات والاستمتاع بأجواء لندن الباردة غالباً، والمتقلّبة الطقس دائماً، والجلوس في مقاهيها الصغيرة المنتشرة، وارتشاف القهوة والشاي، تولَّدَت حكايات هذا الكتاب الذي أسميته: **(الإسلام.. من البساطة إلى التركيب)**، والذي تكوَّنت صفحاته من حواراتٍ دينيةٍ دارت مع مجموعةٍ من الأحبة من سكان تلك الديار.

محمد شابٌّ من إريتريا، حفظ القرآن صغيراً، ودرس علم الحديث، وحضر مجالس الشيوخ، وعاش فترة الصحوة بما فيها من حواراتٍ دينيةٍ في بيئةٍ سلفيةٍ، ولكنَّ أسئلته أو تساؤلاته جعلته يقرأ كثيراً، ويحاور كثيراً، واضطرَّ للهجرة إلى بريطانيا بحثاً عن الاستقرار، وقرَّر دراسة الفلسفة وخوض حواراتها.

أبو كيان شابٌّ من كردستان، دفعته ظروف العراق للهجرة إلى ألمانيا والاستقرار فيها، درس علم السياسة فيها، ثم انتقل إلى بريطانيا للاستقرار، وحصل على الماجستير في القيادة في بريطانيا.

الجميع هنا عالقٌ بين لقمة العيش وتدبيرها، وبين أشواق العقل وحوارات المصير، ومثلهما آلافٌ من الشباب المسلم وغير المسلم ممَّن تحيط بهم أسئلةٌ كثيرةٌ بين هموم الذات الآنية وتطلُّعات المستقبل.

مع هذين الشابَّين كانت صحبة لندن في السنوات الأخيرة، ومنها وُلِدَ هذا الكتاب، ورغم أنَّ الحوارات لم تكن تنتظم في نسقٍ منهجيٍّ -كما هي حال الكتب-، لكن.. سأحاول أن أنظّمها بأثرٍ رجعيٍّ، لعلَّها تنير الطريق لفكرةٍ جديدةٍ، أو لحوارٍ مستقبليٍّ، وتفيد متسائلاً لم تُتَح له فرصة حضور هذه الحوارات.

ما الدين؟

كان الوقت منتصف النهار صيفاً في لندن، وبصحبة محمدٍ، وهو يحكي لي عن رحلة أسرته من إريتريا إلى إحدى العواصم الإسلامية، وقصة عيشٍ زادت على أربعة عقودٍ للأسرة في تلك الديار.. ودراسته الشرعية لعلم الحديث، وفكرة وقصة الهجرة، فهو لم يرَ بلده الأصلي قط؛ بل كل ذكرياته تمركزت في بلاد الإسلام تلك، وبين مساجدها، ووسط بيئتها الدينية، ويشرح لي لماذا قرَّر الانتقال لدراسة الفلسفة..

شعرت بقطراتٍ من المطر تتساقط عليَّ، ثم تلبَّدت السماء بالغيوم وانهمر المطر، هكذا هربنا إلى أقرب مطعمٍ في الجوار إلى حين توقُّف المطر، وصادف أن يكون أقرب مقهىً مجاورٍ تركيًّاً.. وهي فرصةٌ لتناول القهوة الساخنة مع "السميط" التركي، هكذا وجدنا أنفسنا داخل المقهى، وعلى طاولةٍ تتَّسع لأربعة أشخاصٍ، والمحل مزدحمٌ بالناس الذين دفعهم المطر للاحتماء بالمكان..

وحال جلوسنا.. واصلنا الحديث عن محمد وذكرياته ورحلته، ولم يقطع علينا الحديث وفنجان القهوة إلا سيدةٌ تستأذن بالجلوس إلى طاولتنا.. كانت في الأربعينات من عمرها، وقد غادرت مقعدها مع كتابٍ تحمله في يدها.

سألتنا حال جلوسها: هل أنتما مسلمان؟

ومباشرةً انتقلت من الحديث بالإنجليزية إلى الحديث بالعربية وباللهجة المصرية..

توقفنا عن الحديث وأشرنا إليها: أن نعم نحن مسلمان..

واصلت حديثها متسائلةً: هل يمكن أن آخذ من وقتكما قليلاً.. فلديَّ بعض الأسئلة؟

قلنا لها: على الرحب والسعة.

ولم تتردَّد في استكمال حديثها.. تابعت: أتعلمان أنَّ الدين الإسلامي ليس ديناً حقَّاً!؟ وأنكما قد تكونان مخدوعين فيه..!؟

وواصلت الحديث مندفعةً: ليس هناك مُخَلِّصٌ سوى يسوع..

ابتسمتُ في داخلي، ولمحت ابتسامةً على وجه محمدٍ أيضاً.. قلت لها: واصلي نستمع إليك.

استكملت حديثها بحماسٍ شديدٍ، فهي داعيةٌ نصرانيةٌ، ولا أدري لماذا اختارتنا لتدعونا، ولكن أصبحنا في موضع المدعوِّين.

بدأتُ أستفسر منها كطالب عِلمٍ يتعرَّف على ما عند الأستاذ من معارف.. لم تكن معارفها توازي حماسها، ولاحظَت أني أستفسر، وأنَّ الاستفسار ربَّما ينتهي بإرباكٍ لسرديَّتها.. وبدا عليها التوتُّر.

قلت لها: لا تغضبي.. فأنا كبير السنّ، وأريد أن أعرف أكبر قدرٍ عن الموضوع الذي تتحدَّثين عنه..

لعلَّها أدركت صعوبة الموقف، فقرَّرت الانسحاب مسرعةً..

التفت إليَّ محمد متسائلاً، قال: لماذا لم يبدُ عليك الغضب من حديثها!؟

قلت: ولماذا الغضب!؟ فالسيدة تحرّكها مشاعر قويةٌ تجاه الدين، وتريد أن يشاركها كل الناس ما توصَّلت إليه.

قال محمد: حسناً.. لاحظت أنك سألتها: لماذا نحتاج الدين أصلاً؟

قلت له: أردت أن أعرف إجابتها؛ فالناس لا يبدؤون بطريقةٍ منظَّمةٍ في طرح تساؤلاتهم، فرغبت أن أنظّم الحديث إن أمكن، وإن انقطع الحديث في أيّ نقطةٍ، سيبقى هذا السؤال عالقاً باعتباره أول الخيط، ولعلَّه..

لم يتركني محمد لأستطرد.. وسأل: أليس سؤال (ما الدين؟) هو الأولى بالطرح؟

البداية كلامٌ معقَّدٌ

قلت له: أحضر القهوة، ولنتحدث عن الدين بمعناه الواسع قبل أن نتناوله تحت عنوانٍ؛ كاليهودية، أو النصرانية، أو الإسلام، أو البوذية، أو الهندوسية.. إلخ.

أثار الحديث فضول محمدٍ، وأيقظ فيه حسَّ الفيلسوف..

تابعت حديثي قائلاً: ما الإنسان؟

لا شكَّ أنَّ القسم المحسوس منه فيزيائيٌّ؛ ذرَّاتٌ وخلايا وأملاحٌ عند التحليل النهائي، ومن هنا يمكن أن يولد تفسيرٌ ماديٌّ للإنسان لا يجعله مختلفاً عن الحيوان إلا من حيث ذكاؤه في تحصيل احتياجاته وضمان بقائه، فتلك هي الوظائف المناطة بعالم الحيوان.

ولكنَّ عالم الحيوان لا يحمل معه رغبةً في منظرٍ جميلٍ، ولا في قول قصيدة شعرٍ، ولا في متعةٍ عقليةٍ، ولا في قلقٍ من الغد، ولا سؤالٍ عن المصير، ولا تفسيرٍ للعالم، ولا رغبةٍ في الخلود، ولا خيالٍ عن الجنِّ والعفاريت، ولا لغةٍ تحمل المجاز وتنقل المعنى المحسوس إلى المجرَّد والعقلي، ولا معايير للصواب والخطأ؛ إذ لا يوجد إنسانٌ من غير دينٍ -وإن ادَّعى ذلك-؛ فالدين هو ذاك الشوق للخروج من أسر المادة إلى الفكرة، وهو إسباغ المعنى على الوجود.

ضحك محمد قائلاً: هذا كلامٌ كبيرٌ، أريد كلاماً بسيطاً "حتى لا نزعل من بعض"..

انتبهت إلى "مبدأ البساطة".. قلت: حسناً.. اِنسَ الكلام المعقَّد.

ببساطةٍ، الحيوان لا يفكِّر أبعد من مجرَّد العيش، فهو لن يشتري لوحةً فنيةً، أو سيارةً فارهةً، ولن يطرب لقصيدةٍ، ولن يسأل: أين أبي، أو أين جدي؟ ولن يفكّر في وجود عالمٍ آخر..

قال محمد: هذه خصائص الإنسان دون سائر الحيوانات والجمادات؛ فالمادة لا أشواق لها؛ فهي مجرد وجودٍ. أمَّا الإنسان، فهو **وجودٌ باحثٌ عن المعنى، ومتذوِّقٌ لهذا الوجود**، هذا جوهر الإنسان، وهو الدين.

الغيب حاضرٌ في كل تفسيرٍ

قال محمد: لكنَّ هناك ملايين من البشر يقال عنهم: "لادينيون"، فكيف نفسِّر ذلك؟

قلت: لعلَّك تقصد الدين بمعنى الإيمان بوجود ما وراء المادة، أو تفسيرٍ غير قابلٍ للإثبات في مختبرات العلوم التطبيقية.. حيث العلم بهذا المعنى هو كل ما يدخل المختبر ويمكن فحصه والتحقُّق منه.

قال: نعم.. هذا ما خطر في بالي..

ضحكت، وقلت له: أترى أنَّ العلوم الطبيعية تستطيع أن تهرب من القضايا غير المثبتة؟

قلت له: منشأ العلم فرضياتٌ غير مثبتةٍ، فشكُّ "ديكارت" في تأمُّلاته، أوصله إلى أنه ليس هناك قضيةٌ يمكن أن يُستنَد إليها لإثبات إمكانية المعرفة إلا واحدةٌ، وهي: مقولة (أنا أشكُّ)، وما كان بإمكان "نيوتن" أن ينشئ الفيزياء التي تقوم عليها المخترعات العملاقة لولا جملة فرضياتٍ وضعها ليبدأ بها، وقل ذلك عن "آينشتاين"؛ فشكل الكون ومنشؤه ومادة الكون وتركيبه، كلها تخميناتٌ مدعومةٌ بنماذج رياضيةٍ، ولذلك يظهر فضاء الفيزياء النظرية، فما يعتقده الناس عن العلم أنه المحسوس والمنظور ليست هي حقيقة العلم الكلية.

فالعِلمُ بناءٌ يبدأ من نقطةٍ افتراضيةٍ باستمرارٍ، فكونُ "نيوتن"؛ (أي: تصوُّره عن الكون)، غير كون فيزياء الكمّ.. وغير كون "آينشتاين"، ومن هذه الفرضيات انطلقوا لتأسيس المعرفة، وأنَّ الإنسان -سواءٌ آمن بوجود خالقٍ، أم لم يؤمن به- مسكونٌ بإسباغ تفسيرٍ ما على الوجود والحضور الغيبي، وهو كامنٌ في كل تفسيرٍ حتى في العلوم الطبيعية.

وما التجربة العلمية إلا استقراءٌ ناقصٌ يُبنَى على **احتمال** تكرُّر النتائج ذاتها إذا ثبتت الظروف ذاتها..

وما الإيمان بوجود "الإلكترون، والنايترون، والكراكز" لدارس الفيزياء.. أو قبول تفسير الجاذبية بين "نيوتن" و"آينشتاين"، إلا بوضع فرضياتٍ، ومعاملتها كحقائق؛ فالإنسان بدون الدين؛ أي: البُعد المتجاوز للمادة والمحسوس، لا يعود إنساناً، ولا يعود قادراً على إنتاج المعرفة.

والدين بمعناه الماورائي الذي لا يقف عند المادة؛ بل يتخيَّل ما وراءها، موجودٌ في عمق العلوم المادية الصِّرفة؛ كالفيزياء، والكيمياء، وغيرها، فلا مفرَّ للإنسان من الدين بهذا المعنى -أشواقٌ وتطلُّعاتٌ تختلف عن المادة والحيوان وحضور البُعد الغيبي- لانطلاق أيِّ عملٍ، ويبقى بعد ذلك موضوع:

ماذا نختار من الأديان المعروضة؟

وماذا نسمِّي ما اخترناه؟

وكل ذلك مرتبطٌ بقائمة معايير الاختيار، وهو مجال الأخذ والردِّ.

قال محمد مبتسماً: لعلَّك تريد أن تقول: إننا والأخت التي جالستنا لتدعونا وسائر البشر، لا نختلف إلا في **نظام المعايير**، وتبعاً له نقف وراء اختيارٍ معيَّنٍ. أمَّا قبول ما هو خارج الحسِّ، وما هو فوق المطالب الحيوانية من الجمال والفن وسائر أشكال الأشواق الإنسانية، فهو موجودٌ عند الجميع.. **فالإنسان كائنٌ دينيٌّ، هذه فطرته وأصل تكوينه.**

قال محمد: عندي سؤالٌ محيِّرٌ منذ سنين.. ولكن عليَّ أن أدرك القطار حتى أصل إلى البيت مبكراً.. غداً لنا لقاءٌ ونواصل هذا الحديث إن شاء الله..

قلت له: ممتاز.. سنلتقي بإذنه تعالى، وربَّما صحبنا أخونا الحبيب أبو كيان.. رائع.

ودَّعت محمداً وعدت إلى البيت.. اتصلت بأبي كيان حتى نلتقيه في اليوم التالي، فوجدت محمداً قد سبقني إليه، وحدَّد الموعد بأن نلتقي عصر الغد..

قال أبو كيان مستفسراً: ما الموضوع حتى نستعدَّ!

وتابع.. اهتمام محمد وحماسه واضح.. فماذا دار بينكما اليوم حتى أكون في الصورة؟

فرويت له بإيجازٍ حوار اليوم..

مم.. مم.. كلامٌ جميل..

وأضاف: تقفز في ذهني الكثير من الأسئلة اللحظة، ولكن لنؤجلها إلى الغد، ونسمع سؤال محمد..

قلت: إذن نلتقي..

ودَّعته وأنا أتساءل عن نوع الأسئلة المحتملة، فطالت القائمة في ذهني، وقلت محدّثاً نفسي: دعنا نرتقب ثم ننظر، فكل شيءٍ في حينه حسنٌ.

هو أشواق الإنسان للتعالي على المادة، ورغبته في الفنِّ والجمال والخلود والمصير، وبحثه عن المعنى، والدين هنا هو تلك الإجابات التي يصطنعها، أو تُعطَى له لإشباع هذا البُعد الذي بدونه لا يكون إنساناً، وبدونه لا يختلف عن مملكة الحيوان ومطالبها المادية.

ما الإسلام؟

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: 1-2].. هكذا التقينا في الموعد المقرَّر، وكالعادة تبدأ رحلة السير على الأقدام كرياضةٍ، ويتخلَّلها حديثٌ مشتَّتٌ، ثم يتحوَّل إلى سؤالٍ مركَّزٍ.

أعاد محمد لأبي كيان قصة السيدة ودَعْوَتها لنا إلى النصرانية وحماسها..

وفي شوارع لندن تمرُّ على مَن يُقدِّم لك وردةً ومجلَّةً تبشِّر بدين النصارى؛ فالكنائس عديدة، ويمرُّ بك مَن يقرع الأجراس مبشِّراً ببوذا، ويمرُّ بك مَن يعرض عليك الإسلام بأطروحاته المختلفة، وتختلط التصوُّرات، فكل شيءٍ متاحٌ، ولك أن تختار.

قال أبو كيان: هب أني لست على أيِّ دينٍ، فكيف لي أن أختار بين كل هذه العروض؟ من أين سأشتري؟ وماذا سأتبع؟ بعضها يبيع بضاعةً نفيسةً، وبعضها يبيع تجارةً بخسةً، ومهمَّة الإنسان أن يبحث عن تلك البضاعة التي يصفها القرآن ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29]، والبحث بين كل ما يُعرَض أمرٌ صعبٌ..

قاطعه محمد مواصلاً: ولدت مسلماً، وفي بيئةٍ متديِّنةٍ، وكان لزاماً عليَّ أن أحفظ القرآن وأحفظ المتون، وأقرأ التفسير، وأحضر دروس العقيدة، وأدرس بعدها أصول الفقه وأصول التفسير.. دروس بعدها دروس.. وهكذا.. ولكن، بعد اثنتي عشرة سنةً لم أشعر بالثقة أن

أعرض ما عندي على أحدٍ مختلفٍ.. قيل لي: لا تجادل أحداً؛ لأنك لا تحيط بعلوم الإسلام، واترك ذلك للعلماء.. وأنهيت الجامعة دارساً لأمهات الكتب، ولكن قيل لي الشيء ذاته: لا تُناقش، فأنت لم تقرأ ولم تستوعب كلَّ الكتب..

هذا هو جوهر سؤالي: إذا كان الدين بهذا التعقيد، ومبنيًّاً على التسليم بسلطة العلماء والاتّباع والتقليد، وأنَّ ستة عشر عاماً من الدراسة لا تؤهِّل الإنسان ليفكِّر لنفسه، أو أن يقول رأيه.. وأنَّ مصيري التقليد.. فما الفرق بين مقلّدٍ وآخر من أيِّ دينٍ!؟ فالكل يولد في بيئةٍ تلقّنه أنها الصواب الصرف، وغيرها الباطل الصرف، فلا فضل لأحدٍ على أحدٍ!

ولماذا ندعو غيرنا إلى التساؤل، ونحرّم ذلك على أنفسنا؟

هل الدين معقَّدٌ كما صوَّروه؟

وكيف كان يتعلَّمه المسلمون الأوائل ويطبّقونه ويدعون إليه وهم لم يحضروا دروساً مقنَّنةً ولا قرؤوا كتباً معقَّدةً..؟

وكيف تواصَلَ معهم الوحي وهم أميون لا يقرؤون ولا يكتبون، وحوَّلهم إلى طليعةٍ تدعو إلى الله وتنشر هداه؟

ولماذا لم يقل لهم أحدٌ: أنتم غير مؤهَّلين لتلقّي الرسالة أو تبليغها؟

وعندما طالبهم القرآن بالتفكُّر والتدبُّر وترك ما كان يعبد آباؤهم، فمَن كان القرآن يحاججه ويوجّهه؟ أهي فئةٌ خاصَّةٌ، أم مؤسَّسةٌ معيَّنةٌ، أم كان خطاباً لعامَّة الناس بمختلف مستوياتهم؟

كيف عرض الإسلام نفسه على المخاطبين الأوائل؟

أكمل أبو كيان.. فعلاً، ما الذي نَقَلَ الدين من البساطة واليُسر والعموم، إلى التعقيد والألغاز؟

ما الذي يجعلنا ندور في حلقةٍ مفرغةٍ؟

فإن أتينا لنشرح ذلك لأبنائنا، وجدنا عنتاً من أين سنبدأ وأين سننتهي، ناهيك أن نشرحه لمتسائلٍ أو مغايرٍ ممَّن حولنا!

قلت: قد تبلور سؤالٌ يمكن أن نطرحه كالتالي:

كيف عرض الوحيُ الإسلامَ على المخاطبين الأوائل؟

كيف حاورهم وكيف حاوروه؟

لنرى: كيف غيَّرت القرون من ذلك النموذج الأول، حتى أصبحت دراسةٌ مستمرَّةٌ ومنظَّمةٌ مدة عشرين سنةً غيرَ كافيةٍ للفهم الدقيق والتعبير الواضح عن الدين!؟

قال محمد: دعونا نطرح السؤال بتصوُّر أنَّ شخصاً غير مسلمٍ طرحه علينا في هذه الجلسة ولْنَرَ بماذا سنجيب: (ما الإسلام؟).

قلت: حسناً.. هذه نقطةٌ جيدةٌ ومهمَّة، قرأت فيها شيئاً منذ أيام، ربَّما يعيننا فيما نريد، وأظنُّه لـ"علي عزَّت بيجوفيتش" أيضاً، يقول: "لو سُئلتُ ما الإسلام؟ لَقلت: هو "**الإيمان والعمل الصالح**" والباقي تفصيلات.. وأتبع: وسأقوم بتأجيل الحديث عن الصلاة والصيام والزكاة والحجِّ والتفصيلات؛ باعتبارها وسائل لبلوغ تلك الغاية".

هَمهَمَ أبو كيان: هذا قولٌ رائعٌ.. ثنائية "**الإيمان والعمل الصالح**"، فعلاً هي مقدمة فهم الإسلام.. وأستطيع أن أرى ماذا تورِث الغفلة عنه مِن استغراقنا الكثيف في الوسائل كمظاهر الصلاة والصيام والنوافل على أهميَّتها، ولكنَّها في النهاية وسائل لتثبيت الإيمان والقيام بالعمل الصالح.. وحين نفعلها دون التفاتٍ لحصول الثمرة، لا يصلح حال الفرد ولا المجتمع.. فالعبادات بشتَّى أنواعها مهمَّةٌ، ولكنَّ الثمرة المرجوَّة أهمُّ، وتحقيق التعبُّد الشكلي مظنَّة القرب من تحقيق الإيمان والعمل الصالح، ولكنَّه لا يضمن حدوثه".

أتبع محمد: آها.. هذا واضحٌ.. فنحن من أكثر الأمم تعبُّداً، ولكنَّ الأخلاق التطبيقية الكبرى من العدل بين الخلق، والإتقان في العمل، والتفكير السويِّ، وبناء أسوار العزَّة من الصناعة والزراعة والتجارة، وحضور العلم والمعرفة، كلُّها مفرداتٌ غير حاضرةٍ، فكأنَّ الصلة بين ظاهر العبادة والعمل الصالح قد انقطعت!

أتبع أبو كيان: لنبدأ بـ: (كيف عُرِضَ الدين على المتلقِّين الأوائل؟)، فهذا أثار اهتمامي.

أكمل محمد: صحيح.. فنحن مررنا بالمدارس الشرعية وطريقة تدريسها، لكن في هذه الرحلة من التذاكر، نحن نبحث عن: (كيف كان العرض الأول في عالَمٍ لم يكن قد انتقل من

البساطة إلى التعقيد.. عالَم المشافهة الأولى! حيث لا مدارس ولا حلقات مقنَّنة ولا جامعات ولا كتب!؟).

قال أبو كيان: عالم المشافهة الأولى لم يكن عالم تعريفاتٍ واصطلاحاتٍ؛ بل عالماً عمليَّاً يتَّجه إلى قلب الموضوع من حيث أثره في الواقع، فحين يسأل شخصٌ: ما الساعة؟ يأتيه الجواب: ماذا أعددت لها؟ منحىً عمليٌّ لا يلغي أهمية الجهد العلمي اللَّاحق طبعاً، ولكن لا يجعل المنحى العلمي اللَّاحق بديلاً عن المنحى العملي السابق، فهو روح السلام ومنهج تربية الرسول ﷺ للأمَّة.

ضرورة البحث عن منطقٍ قبل إضافات القرون اللاحقة للإسلام الأول

قال محمد: تلك هي المعضلة.. ولكن من أين سنبدأ؟

قلت: لنبدأ من نقطة أول تعبيرٍ في القرآن الكريم نقابلها: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، لنحاول أن نكتشف أبعاده! فالقرآن هو المفتاح للكشف عن ذلك البُعد العميق المختفي خلف أربعة عشر قرناً من الزمان.. لنبدأ: بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

الإنسان الأول في الجزيرة يؤمن بوجود إلهٍ، ويؤمن بأنه خالقٌ للوجود، فنِصفُ المعادلة تمَّ حلُّها في تلك البيئة: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25]، ومع ذلك يتَّجهون بالدعاء والطلب إلى غيره من الأصنام: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الزمر: 38].. وهم يُعبِّرون عن معتقدهم المبتور بقولهم: (باسمك اللهمَّ)، فيأتي الوحي ليقرِّر حقيقةً مغايرةً وبديلاً قويماً: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ أي: إنَّ للكون إلهاً مُتدَخِّلاً فيه برحمةٍ شاملةٍ أحاطت بكل شيءٍ، وبرحمةٍ واصلةٍ تبلغ كل مخلوقٍ، فهو إلهٌ متَّصلٌ بخلقه مباشرةً، لم يجعل بينه وبينهم حجاباً، ولا وسيطاً، ولا كاهناً.

وإذا ارتفع وجود الوسيط أصبح موضوع ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾؛ أي: مؤهَّلاً ومسؤولاً عن قراراته.. نقطة ارتكازٍ للإنسان الجديد المسؤول، ومن ذلك تتقرَّر المسؤولية والأهلية، ويعمل الإنسان بقدر وُسعه ليقوم بمهمَّة الاختيار.

هذا تحريرٌ للإنسان من كل سلطةٍ وسيطةٍ.. ويتكوَّن الإنسان المسؤول الذي يعتقد بأهليَّته، ويثق بذاته، ويتفكَّر لنفسه، ويتحمَّل نتائج قراراته..

نقطة البدء: الإنسان مسؤول

قال محمد: لاحِظ أنَّ هذا الإنسان الأول لا يقرأ ولا يكتب غالباً، ووسائل المعرفة ليست متاحةً له.. فلاحِظ كيف حظي بهذه الثقة! وكيف اعتمد القرآن على فطرته الأولى!

أتبع أبو كيان: لقد أدرك هذه الإنسان الأول الفارق بين ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وبين "**باسمك اللَّهمَّ**"، كما شهدنا في صلح الحديبية؛ حيث أصرَّ المشركون على أن تبدأ المعاهدة بـ"باسمك اللَّهمَّ" بدلاً من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فالمسافة بين الإله المستقيل والإله الحاضر الحيّ القيّوم مسافةٌ بعيدةٌ.

قال محمد: حينما يغطِّي المشركون تلك المسافة بين المعنيَين بما اصطنعوه من آلهةٍ، جعلوها وسائط بينيةً تقرّبهم -في زعمهم- من الخالق الأوحد.. تضرُّ وتنفع، وتسمع وتجيب.

قلت: من اللحظة الأولى كان التركيز على طبيعة الانقلاب التصوُّري بين إلهٍ مستقيلٍ وإلهٍ فاعلٍ، وبين اتصالٍ مباشرٍ بالخالق وبين حضور الوسطاء.. ومن هنا، كثُر هذا المعنى في القرآن.. بيان عدم أهلية الوسطاء وعدم جدواهم، وبيان ضرورة السؤال المباشر للخالق.

قال أبو كيان: سؤالٌ يخطر في بالي: ما الشيء المشترك بين رسالات السماء الذي أعطاها وصف الإسلام مجتمعةً.. فكل الأنبياء شهدوا بأنهم مسلمون!

قال محمد: ربَّما يلخِّص ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].. ولكن يشغِّب على ذلك سؤالٌ: هل المذكورون في الآية هم على خيرٍ قبل نزول القرآن، وبالتالي لم يعد يجديهم شيءٌ بعدها إلا الدخول في الإسلام لوجود آية: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، أم أنَّ الأمر اليوم مختلفٌ؟

أمهات القضايا: الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح

قلت: هذه أمهات القضايا.. مَن فهمها، نال الخير كلَّه، ومَن اختلَّت عنده، واجه العنت والقصور. وحريٌّ بنا لو أننا أجَّلنا السؤال عن تفسير الآية حتى تتكامل الرؤية في هذه النقطة، ويمكنك تسجيل ذلك عندك إن خفت النسيان.

نحتاج أولاً أن نركّز على تلك الثلاثية: الإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبالعمل الصالح، باعتبارها معاقد الدين.

وسنترك إلى مرحلةٍ أخرى: ماذا سيحدث لمن لم يدخلوا في الإسلام رغم إيمانهم بالله واليوم الآخر وفعلهم للصالحات من معاصرينا؟

قال محمد: حسناً.. ليكن كذلك.. (ووضع ملاحظةً في هاتفه حتى لا ينسى الموضوع، وكأنه يقول: سأنتظر الإجابة ولو بعد حينٍ).

أتبعت: انتهى حوار اليوم مع ثلاثية الأديان السماوية كلها: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، وموعدنا غداً إن شاء الله لإتمام ما بدأناه.

كان اليوم التالي يوماً ماطراً، والسير في الطرقات لمسافاتٍ معناه أخذ حمام ماءٍ باردٍ رغم الاحتياطات.. فقرَّرنا الجلوس في مقهىً قريبٍ عسى أن تتوقَّف موجة المطر.

بدأ أبو كيان الحديث قائلاً: عوداً على بدءٍ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ما علاقة الأضلاع الثلاثة؟ لو بدأنا بهذه النقطة.

استنار وجه محمدٍ: أظنُّ أنَّ الإيمان باللّه بكمالاته، وضرورة العمل الصالح كثمرةٍ لهذا الإيمان، أمرٌ قريبٌ للفهم، بقي الضلع الثالث "اليوم الآخر"، وأظنُّه متعلِّقاً بسؤالٍ كبيرٍ في الفلسفة، وهو سؤال "الشرّ"، فإن كان اللّه رحمناً رحيماً، فلماذا هذا الكمُّ من الشرور في الكون؛ الفقر، والجهل، والمرض، والحروب، والظلم، والقهر؟ ولماذا حياة الغابة بين الحيوانات لا تتَّسم بالرحمة التامَّة؟

ضحك أبو كيان وقال معلّقاً: الفلسفة لا تترك شيئاً إلا تثير في وجهه الأسئلة.

قال محمد معقّباً: إن كان اللّه مثال الكمال المتناهي، والعلم المتناهي، فمعادلات الوجود وإدارته بكل تفصيلاته لا يحيط بها إلا اللّه ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٖ﴾ [الرعد: 8].

من السهل أن نعرف حجمنا في الوجود، فنرى جوانب الرحمة والعناية والتسخير، ولكن في الوقت ذاته لا نفهم المعادلة الكلية التي نرى فيها تلك النقائض من الفقر، والجهل، والمرض، والحروب، والآفات الطبيعية من الزلازل، والبراكين، والقحط، والأوبئة، التي تصيب الملايين من الناس الذين لا ذنب لهم، فأين تكتمل حلقة العدل في حقّ كل هؤلاء؟

قال أبو كيان: لا شكَّ أنَّ مفهوم اليوم الآخر هو يوم تعديل الموازين، وهو يوم الإنصاف الكلي، وبدونه تبقى المعادلة ناقصةً بما نشاهده في الحياة الدنيا.

قال محمد: حسناً.. فاليوم الآخر بهذا المعنى هو تمام حلقة الوجود البشري، وسدٌّ لدائرة سؤال الشرِّ الذي لا يُرِي الإنسان كمال العدل في الحياة الدنيا، والدين هنا يحمل معه وعداً باكتمال الدائرة في الحياة الآخرة؛ بحيث لا تبقى مظلمةٌ ولا شعورٌ بالغبن.

الدين وعدٌ باكتمال دائرة العدل المطلق في اليوم الآخر

قلت: الإيمان اختيارٌ من متعدِّدٍ: "كون بلا خالقٍ، أو خالق بلا فاعليةٍ، أو خالق رحمن رحيم، أو فراغ الإجابة بمقولة: (لا أدري).. إلخ"، ولكنه اختيارٌ له تبِعاته؛ فالنظرة للوجود تسبق التفاعل معه واتخاذ القرارات الواعية فيه.

قال محمد: وما رابط هذا الكلام بما سبق؟

قلت: تبيَّن لنا إلى الآن أنَّ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هي نقطة البدء في الخطاب، وأنها قدَّمت انقلاباً على فكرةٍ تسكن المجتمع الجاهليَّ حينها، التي يمكن تلخيصها في اعتقادهم:

بأنَّ الإله خلق الخلق، ثم أسلم الكون إلى تلك الأصنام وحُجَّابِها، فهو إلهٌ مستقيلٌ، ليعاود تعديل الصورة إلى إلهٍ حاضرٍ لا يحتاج إلى وسائط من الأصنام والكهَّان، يستطيع أن يخاطبه الجميع، في كل وقتٍ.

قال أبو كيان: إذاً؛ فالإسلام بدأ بتفجيرٍ، وبإعادة هندسة تصوُّر الإله وعلاقته بالكون في أذهان المتلقّين الأوائل، ثم ماذا؟

قال محمد: أعجبتني كلمة "تفجير" "وإعادة هندسة"، فلك أن تتخيل: أنك تتحرَّر من كل الوسائط والكهنة والأصنام، وأنك تستطيع على بساطتك أن تخاطب الإله وتسأله وتناجيه وتركن إليه.. إنه معنىً ثوريٌّ بالكامل، وللأسف قضت عليه الألفة وطول العهد.

إعادة هندسة تصوُّر الإله وعلاقته بالكون

قلت: لنواصل رحلة أول الوحي شيئاً فشيئاً.. لعلَّنا نستطيع إحياء تلك المعاني الأولى.

قال محمد: تعلَّمنا أنَّ أول ما نزل من الوحي ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: 1].

﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أول الوحي، ولماذا أقرأ؟

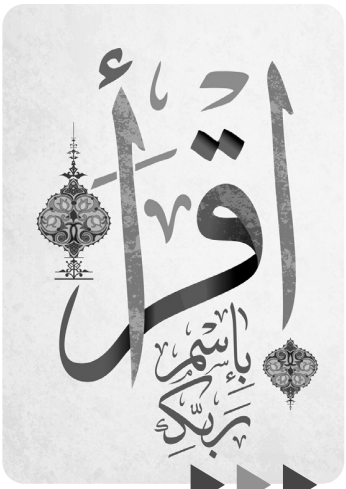

قال أبو كيان: لا شكَّ أنَّ تلك اللحظة هي الأعظم؛ فالتقاء السماء بالأرض بدأ بأعظم كلمةٍ ستشكِّل مستقبل البشرية (القراءة والقلم).

قلت: إنَّ ما يلفت نظري هو الأمر بالقراءة وتحديد شروط فاعليَّتها!

قال محمد: هل يمكن شيءٌ من الشرح؟

قلت: لنتأمَّل فواتح سورة العلق؛ حيث سنجد التالي:

1. ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾
2. ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾
3. ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾

4. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾
5. ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

قلت: قراءة الكون، وامتلاك أسراره، وتسخيره لمصلحة الإنسان، والعمران، ورعاية ما فيه.. كلُّ ذلك معرَّضٌ للخطر إن لم تكن القراءة مرتبطةً بالخالق؛ فالعلم والقلم أكبر النعم، وهي أدوات تسخير الوجود، ولكنَّ تسخيره للخير مرتبطٌ بذلك المفهوم الأول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وبدونه يضِلُّ المسعى وتسوء الثمرة.

قال أبو كيان: آهٍ.. هناك قراءةٌ للوجود في ضوء الإيمان، وهناك تدوينٌ، وهناك تراكمٌ معرفيٌّ.. فتلك العلقة المغرِقة في الصغر، سيكون لها دورٌ في وجودٍ غير متناهٍ، وشأنٌ كبيرٌ، بسبب خاصِّيَّة التعلُّم التي زُرعت فيها.. والإنسان بعدها في سباق المعرفة يصعد درجاتٍ، أو يهبط دركاتٍ:

- بقدر صلة ذلك العلم بالخالق..
- بقدر صلة العلم بصبغة الله..
- بقدر صلة ذلك العلم بمفهوم ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، الذي هو قلب العلاقة بين الخالق والمخلوق.
- بقدر ثمار الخير التي تترتب عليه، وكلما بعُد عن ذلك المعنى، قام الشرُّ في الوجود.

اقرأ: العلم مفتاح تسخير الكون، ومعرفة طبيعة العلاقة بالخالق، وضمان توجيهه إلى خير الإنسان

قال محمد متسائلاً: أهناك خارطةٌ كلِّيَّةٌ للدين؛ توضّح بإجمالٍ الصورة الكلية، وتوفّر على الإنسان صعوبة الفهم المجزَّأ؟ فالتصوُّر الكلي يعين في كثيرٍ من الأمور.

فأولاً: هو يساعد في ترتيب الجزئيات في مواقعها الصحيحة.

وثانياً: يساعد في رسم الأولويات.

قال أبو كيان: أظنُّ سورة الفاتحة أول الخيط، فنحن نكرِّرها في كل ركعةٍ من الصلاة، وأجد أنها تحوي على خارطة القرآن، فلو دقَّقنا.. فلننظر:

سورة الفاتحة

1. ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾: حَوَت المعنى الإيمانيَّ الذي أراده القرآن، وهو وجود إلهٍ خلق واعتنى بموجب الرحمة.
2. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾: فعناية الخالق شملت جميع الخلق، وليست خاصَّةً ببشرٍ دون بشرٍ، ولا بمخلوقٍ دون مخلوقٍ.
3. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾: تلك هي الصفة اللصيقة بالخالق: رحمة سابغة، ورحمة واصلة إلى الخلق.
4. ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾: فكل خللٍ ظاهرٍ في موازين العدل في الحياة الدنيا، سيتمُّ تعديله في اليوم الآخر.
5. ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: فما من مستحِقٍّ للتوجُّه إليه بالعبادة إلا هذا الخالق.
6. ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾: وما من مستحِقٍّ لطلب العون منه بحقٍّ إلا الله تعالى.
7. ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾: وهو أعظم الطلبات.. أن يجد الإنسان طريق الخير.
8. ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾: وهو طريقٌ بيَّنها القرآن بالأمثلة العملية في حياة الرسل والصالحين.
9. ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: وهو طريقٌ مباينةٌ سلكها من فسدت ضمائرهم؛ فهم يعرفون الحقَّ ويصدُّون عنه.
10. ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾: وهم أناسٌ لم يدقّقوا في المنهج، فاختلطت عليهم السبل.

قلت: هذه عشر رسائل شكَّلت عقلية الجيل الأول، ولو شئت تذكُّرَها، لَوجدنا المفاهيم الكبرى:

رحلة البشرية إلى الله تحتاج إلى: مفهوم الإله الواحد لكل الوجود.. وأنَّ الرحمة هي عنوانه الأسمى، وبها جاء الرسل.. وأنَّه المستحِقُّ للدعاء والطلب.. وأنَّ الصراط المستقيم مثَّلَه الرسل والصالحون، وقد عرضهم القرآن.. وأنَّ الإنسان يحتاج إلى أن ينقّي ضميره للحقِّ، ويدقّق في مناهج البحث.

ففي القلب: إلهٌ رحمنٌ رحيمٌ، وهو ربٌّ لكلِّ الموجودات، يشملها برعايته، فهو ليس ربّاً للمسلمين دون غيرهم، ليس ربّاً خاصّاً باليهود، أو بالنصارى، أو غيرهم.

وهو الضامن بانتهاء الرحلة بالعدل التامِّ في اليوم الآخر، وأنَّ مَن دخل في الدين الجديد، لا يتجه إلا إلى الله بالعبادة، ولا يستعين بغيره فيما لا يقدر عليه إلا هو.

وأنه في بحثه عن الطريق الموصِل إلى رضى الخالق، عليه أن يتعرَّف إلى طريق الذين أنعم الله عليهم، وأمثلتهم العملية في القرآن، وأنه في رحلته يحتاج إلى دعامتين كبيرتين؛ أولاهما: سلامة الضمير. وثانيهما: التأكُّد الدائم من دقَّة المنهج.

قال أبو كيان: تلك معضلة المعضلات، وهي الغفلة عن أهمية نقاء الضمير، وتجرُّده للحقِّ، وتحصين المناهج من المسائلة، وإعطاؤها القدسية، ومن هنا أُتِيَت الأمم الأخرى؛ بل البشرية.

لكن.. لنتابع رؤية البناء القرآني: كيف تتابعت لبِناته؟ لننظر إلى مفتاحٍ آخر مهمٍّ:

سورة الفاتحة ترسم الخارطة الأولى للقرآن الكريم

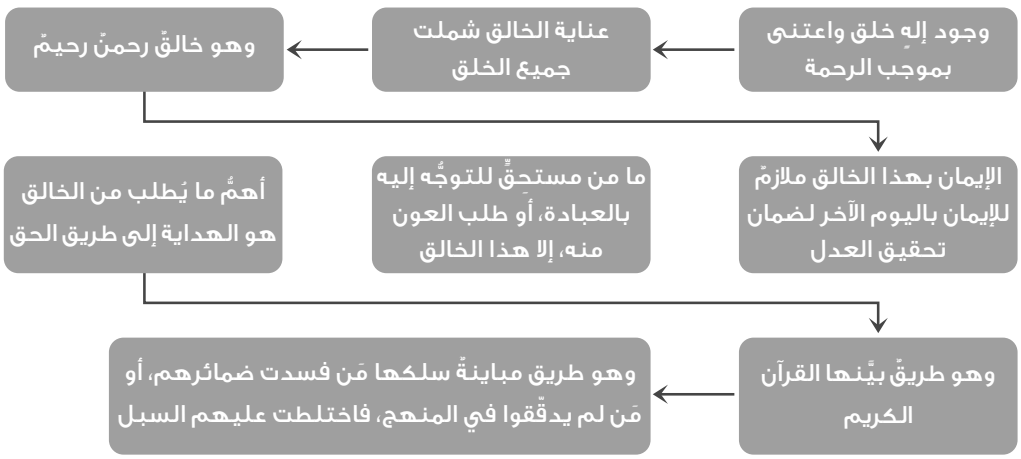

قال محمد متابعاً: يمكن النظر إلى سورة "العصر"؛ فهي تعادل ثلث القرآن عند البعض: فبِنْيَتُها تحتاج إلى تأمُّلٍ؛ لأنها تتكلم عن نوع العلاقة المثمرة بين بني البشر.. يعني هنا: ضبط العمل الجماعي وكيفية القيام به.

1. ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾: مِن: خسِر وقته، خسِر كلَّ شيءٍ.
2. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: فالإيمان الحقُّ أول الخير.
3. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فالإيمان المجرَّد مِن العمل ليس مراد القرآن.
4. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾: الحقُّ والحقيقة هما غاية القلب المؤمن، وأن يجد الإنسان من يناصحه، فتلك قيمةٌ عظمى في المجتمعات.
5. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾: وطريق العمل والتواصي يحتاج إلى صبرٍ وتحمُّلٍ.

قلت: هنا.. وفي هذا النموذج.. نجد صلب الموضوع، وهو عنصر "الزمن" ورعايته عند البشر، فبقدر احترام الزمن، تتولَّد الخيرية والبركة في العمل ما رُوعيت عناصر أربعةٌ يصلح بها العمران البشري:

1. الإيمان.
2. العمل الصالح.
3. التواصي بالحقِّ والحقيقة بين أفراد المجتمع.
4. التواصي بالصبر، فلا شيء يتحقَّق بلا نَصَبٍ.

عقَّب أبو كيان: يا له من بناءٍ مركَّزٍ.

قلت: هكذا كانت المبادئ الكبرى والصورة الكلية تسبق التفصيلات، ومن مجرَّد النظر إلى هاتين الخارطتين: فاتحة الكتاب، ودراسة سورة العصر، يتضح كل ما يتعلق بمراد القرآن والدين.

هكذا تلقَّى المسلم الأول الدين: إيماناً مرتبطاً بالعمل، وعملاً مرتبطاً بطلب الحقِّ، ومجتمعاً مؤمناً يقوم بالتناصح ويصبر على طريق الحقِّ -وإن طال-.

قال محمد: وددت لو أنَّ أمامي لوحةً أرسم فيها شكلاً تصوُّريَّاً يرسم فاتحة الكتاب وسورة العصر؛ لتكون حاضرةً ونحن نواصل حديثنا.

سورة العصر والبناء الاجتماعي

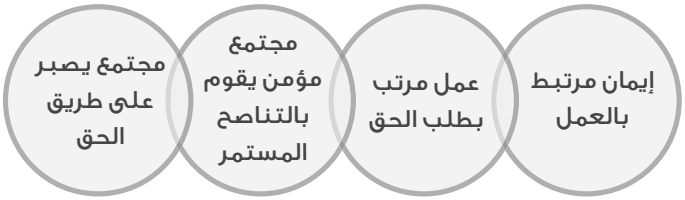

العقيدة والشريعة (الإيمان والعمل الصالح)

قال محمد: الإسلام إيمانٌ وعملٌ صالحٌ.. وبالتعبير الشائع عقيدةٌ وشريعةٌ..

والإيمان يتجلَّى في العمل الصالح، فهما كوجهين لعملةٍ واحدةٍ.. وربما مفهوم الإيمان والعمل الصالح له دلالاتٌ أوسع من العقيدة والشريعة؛ فالإيمان البسيط الذي ساد مرحلة الإسلام الأولى، كان عنصر تجميعٍ؛ لخلوِّه من التعقيد والتشقيق والتدقيق، والعمل الصالح أوسع إطاراً من الشريعة؛ حيث ينصرف الذهن إلى الأحكام الشرعية بمعناها التفصيلي المتأخِّر، بينما كان العمل الصالح شاملاً لكل ما يتبع الأخلاق الحسنة والعناية بروح العبادات على حساب التفصيلات؛ الأمر الذي أصبح مورد التفصيل في الإسلام السائد في القرون اللَّاحقة.

قلت: قلنا: إنَّ سورة الفاتحة هي خارطة الدين، وسورة العصر دليل العمل للبناء الاجتماعي..

قال أبو كيان: أظنُّ غداً نستكمل استيضاح المفاهيم بحسب خطاب القرآن للمخاطبين الأوائل!

قلت: موافقون.

هكذا استكملنا رحلة رياضة المشي كتقليدٍ كان يعلِّق عليه محمد أنه "المدرسة المشَّائِيَّة" في الفلسفة..

افترقنا على موعد فتح ملفٍّ مهمٍّ، وهو: "**المفاهيم التأسيسية**" التي أثارها القرآن الكريم.

مرَّت رحلة المشي على ما يرام، وجاء اليوم التالي مشمساً تتخلَّله سُحُبٌ متقطعةٌ، باردٌ وجميلٌ، ومعه بدأ محمد الحديث قائلاً: أرى أن نبدأ الحديث عن المرأة في القرآن؛ لأنه موضوع الساعة، فكيف ينظر القرآن إلى المرأة؟ إذ إنَّ واقع المرأة حين تنزَّل القرآن الكريم معلومٌ في الشرق والغرب، فكيف سيُعَبِّر القرآن عن المرأة؟

قال أبو كيان: هذا أمرٌ منطقيٌّ؛ فالذكر والأنثى هما الإنسان، والإنسان هو المكلَّف بالدين، فبعد أن استعرضنا المطالب العليا للدين، فلنفحص نظرة القرآن إلى الإنسان؛ الذكر والأنثى.

الإنسان (الذكر والأنثى)

في غياهب القرون الوسطى، وفي بيئةٍ تغلب عليها البداوة، يأتي قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13]، معنىً عميقٌ تأسيسيٌّ متجاوزٌ للزمان والمكان، يضع الإنسان أمام معادلة: **التقوى**.

فقيمة الإنسان تتحدَّد بعنصر التقوى؛ أي: بسيطرته على نوازع الشرِّ، أو بعبارةٍ أخرى: قدرته على "الامتناع" كما يمثّله الصوم، وذلك سباقٌ مفتوحٌ للقرب من الخالق.

ويأتي القرآن الكريم ليضع النقاط على الحروف: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: 123].

ليس هناك فارقٌ بين بشرٍ وبشرٍ، سوى **طاقة الخير في الإنسان**، نقاء الفؤاد في طلب الحقِّ ومواكبته بالعمل الصالح.

ومن هنا يبدو مَعْلَمٌ مهمٌّ في القرآن الكريم؛ فرغم التفريق بين الذكر والأنثى **بالمعنى البيولوجي** ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]، إلا أنه من ناحية المسؤولية الاجتماعية،

يأتي النصُّ القرآنيُّ ليقودنا إلى مساواةٍ تامَّةٍ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: 71].

فكل معروفٍ سياسيٍّ أو اقتصاديٍّ أو اجتماعيٍّ أو دينيٍّ، فالمسؤولية في متساويةٌ، وهو مجال سباقٍ في الخير، وفي المقامات والأدوار نلاحظ المنحى ذاته:

- فمقام الزوجية تمركزت فيه قيمة المودة والرحمة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].
- وفي مقام الأبوَّة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: 8]، أمَّا الأمُّ وبِرُّها: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 32].
- أمَّا المسؤولية المستقلَّة: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 95].

وجعلت الشريعة تعاقد الزوجية عقدَ تراضٍ، يمكن الدخول فيه والخروج منه بيُسرٍ؛ فالذكر والأنثى هنا مفهومان تَكَامُلِيَّان. أمَّا الخيرية، فواقعها عمل الشخص لا جنسه. وأمَّا حقُّ المال والكسب والإرث، فشكَّلت فارقاً ضخماً بين تصوُّرٍ وتصوُّرٍ.

الإنسان ذكرٌ وأنثى: أدوارٌ تتعلَّق بأصل تكوينه كإنسانٍ، وأدوارٌ تتعلَّق بنوعه البيولوجي، ولكلٍّ منهما متطلباته

قال محمد: هذا خطابٌ سابقٌ لزمانه، لكنَّه اصطدم بثقافة عصرٍ ورؤيته، ولا زال يصطدم! فكيف نرسم في الأذهان والثقافات سيادة المعنى البيولوجي على حساب خطاب الحقوق، وفي قلبه روح التكامل والمودَّة، فلا تحليق إلا بهما!؟

قال أبو كيان: صحيح تماماً، ولكن من وراء القرون نرى أنه كان يضيء الأفق وسط ظلامٍ دامسٍ من العادات والتقاليد، وبقدر طاقته التحرُّرِيَّة أنتج في عصره تغيُّراتٍ كبرى لم تبلغ أفق الإنسان الكامل، ولكن غيَّرت من طبيعة العلاقة بين المرأة والرجل في حقوقها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية منذ اللحظة الأولى، وما زال هناك الكثير ممَّا هو مطلوب، ولكنَّ الخطاب الأول افتتح أفقاً وانتظاراتٍ، وهذا هو المهمُّ.

يقطع أبو كيان حديثه قائلاً: اليوم دعوتُ أبا زكريا ليشاركنا الحوار، وأبو زكريا أستاذٌ ومترجمٌ في اللغة الإنجليزية، ومستشارٌ في التخطيط، وشخصيةٌ في غاية اللطف.

رحَّبنا بأبي زكريا، وهو دائماً محل ترحاب..

وكلَّفْنا أبا كيان أن يلخّص له سريعاً نتائج الحوارات السابقة..

تهلَّل وجه أبي زكريا، وافتتح حديثه: فهمت أنَّ خارطة القرآن الكريم في سورة الفاتحة، ومفتاح العمل الجماعي في سورة العصر، وأنَّ الأنوثة والذكورة مفهومان متكاملان؛ تفرِّقهما البيولوجيا، وتجمعهما الواجبات والحقول المشتركة.. ولكن، ماذا عن الإيمان والكفر، أليس مفهوماً مفصليَّاً يفرِّق بين البشر؟

قلت: ذلك أخطر المواضيع؛ إذ إنَّ أيَّ سوء تصوُّرٍ لهذا الموضوع، سيقود إلى تشويه صورة الدين، وإلى تخلّي البشرية عن عُرى الدين، وتحلُّلها من تكاليفه باعتباره مصدراً للشرور لا للخيرية.. صحيحٌ.. إننا نحتاج إلى أن نزور تلك المنطقة، لنرى كيف أسَّس القرآن الكريم تلك المنطقة التي كانت ملغومةً بكثيرٍ من سوء الفهم عبر العصور؟

الإيمان والكفر.. أليس حاجزاً؟

قلت: نحتاج إلى رؤية مستويين:

الأول: مفهوم الإيمان المطلوب ومفهوم الكفر المرفوض..

ابتسم محمد متسائلاً: وهل هناك كفرٌ مقبولٌ؟

قال أبو زكريا: دعنا نرَ.. فالموضوع يستحقُّ التأمُّل..

قلت: التوحيد مفهومٌ مركزيٌّ

قضية التوحيد مركزيةٌ في الديانات السماوية، ولننظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: 1-4]. أو إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 14]. أو إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: 162]، هكذا يضع القرآن الكريم مسافةً شاسعةً بين الخالق والمخلوق..

قائمة الإيمانيات

الإيمان بالله وإفراده بالعبادة وبالتلقّي منه، والإيمان بالرسالات وبالكتب السماوية وبالملائكة والجنِّ كعوالم غيبيةٍ، ونحن مطالبون بعدم التفريق بين الرسل، والإيمان باليوم الآخر وبالحساب والجزاء، وبأنَّ التحليل والتحريم حقٌّ لله وحده، وأنَّ الكفر هو إنكار هذه القضايا.

ودور الرسل محدَّدٌ في القرآن الكريم

- **التذكير:** ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21].
- **وأنه بعيدٌ عن السيطرة:** ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 22].
- **وبعيدٌ عن الوكالة:** ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 66].
- **وليس رقيباً يُحصِي الأعمال:** ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86].
- **وهو لا يعلم الغيب:** ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188].
- **وهم بشرٌ من البشر:** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: 110]. ويتفرَّع من ذلك أنَّ الأولياء بشرٌ لا تلحقهم قداسةٌ ولا قوىً خارقةٌ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62-63].

اليوم الآخر

- **هو خاتمة الحساب:** ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 39-42]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7-8].
- **وبه تكتمل دائرة العدل:** ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].
- **وتُراعَى فيه كلُّ الظروف:** ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [يس: 54]، فكل شيءٍ حاضرٌ ومقدَّر.

والإنسان في القرآن

- **له استعداداتٌ مختلفةٌ للخير والشر:** ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3].
- **وهذه النفس الإنسانية باستعداداتها:** إمَّا يختار الإنسان تزكيتها، أو أن يهملها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9-10].

القضاء والقدر

هو سنن الله العامَّة التي بثَّها في الكون لانتظامه وفق علمه وحكمته، ومنها: حرية الإنسان واختياراته، التي عليها تترتَّب مسؤولياته، فلا يعتذَّر بالقَدَرِ ليتهرَّب من تلك المسؤوليات: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 148-149].

قال أبو زكريا مبتسماً: نعود إلى النقطة الأولى.. ماذا عمَّن لا يؤمن بكل ذلك!؟ ما موقف المسلم منه!؟

قلت: حسناً.. هذا يحتاج إلى بعض التفصيل، ولنَسِر فيه خطوةً خطوةً.

قلت: الكفر في الدينا غير الكفر في الآخرة!

رفع محمد حواجبه متعجّباً ناظراً إليَّ وكأنه يسأل: كيف؟

قلت: الكافر في الدنيا: هو مفهومٌ قانونيٌّ؛ فصاحبه لا تجري عليه أحكام الإسلام، فلا يُطالب بالشعائر ولا الشرائع التي يُطالَب بها المسلم.

أمَّا **عند الله: فالكافر** مَن بَلَغَتْهُ الدعوة صحيحةً، واقتنعت بها نفسه، ولكن رفض الإقرار بها عناداً واستكباراً، أو طمعاً في مالٍ أو جاهٍ، أو خوفاً من الناس. وهذا لا يعلمه إلا الله.

الكافر في الدنيا غيره في الآخرة

قال أبو زكريا: هذا مفهومٌ عميقٌ؛ فهناك أناسٌ كُثُرٌ لم تبلغهم الدعوة بهذه المواصفات، ومن ثم فهُم لن يُظلَموا يوم القيامة.

قلت: صحيح.

قال محمد: إذاً؛ فما الطريق إلى الإسلام بحسب القرآن؟

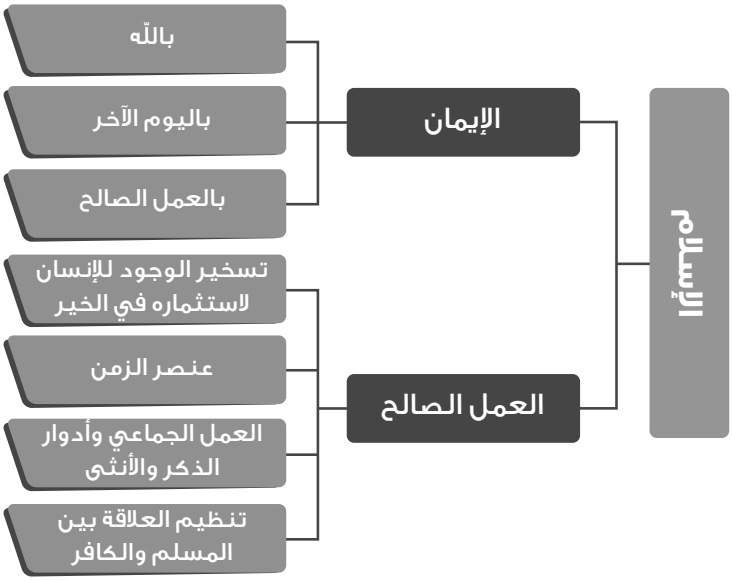

الطريق إلى الإسلام؟

قلت: لنبدأ بقاعدة الدين الكبرى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: 99]، **فيصبح السؤال:**

ما أوجه الإقناع التي يقدّمها القرآن الكريم؟

هل سيتَّجه إلى تقديم الصيغة لخوارق الواقع كما حدث في الديانات السابقة، أم تقديم البرهان عبر آيات الكون ذاتها، وعبر النص القرآني وقدرته الإقناعية؟

أيّ المَسلَكين سيسير القرآن الكريم فيه؟

وهنا يرتقي القرآن الكريم إلى أفقٍ جديدٍ بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: 4]، فلا معجزات حسِّيَّة، ولكن قناعات عقلية.. **هي نقلة إنسانية كبرى؛ حيث استبدلت المعجزة الحسية بالقناعة العقلية.**

قال محمد: هذا يفسّر إشارة القرآن للآيات الكونية وللنظام الكوني وانتظامه بديلاً عن خوارق النظام الكوني: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

فالكون وأسراره بصمة الخالق في الوجود، فكلما غاص الإنسان في أسرار الوجود، لقي ما يفوق خياله من قوانين الوجود التي لا تحتاج إلى مزيدٍ..

استبدل الإسلام الخوارق والخروج عن النسق كإعجازٍ..
بانتظام الكون كدليلٍ على الإعجاز

قال أبو كيان: من الواضح أنَّ القرآن الكريم يتَّجه إلى تبصير الإنسان بفطرته؛ ففي لحظات ضعفه تقوده الفطرة إلى خالقه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51]؛ ففي لحظات الخوف والقلق لا يعود هناك من ملجأٍ إلا إلى الله عزَّ وجلَّ.

قلت: **من هنا.. فإنَّ الطريق التي اختطَّها القرآن الكريم للإيمان الحقِّ**، هي طريق مخاطبة الفطرة والعقل، ودوام النظر في انتظام الكون من الذَّرَّة إلى المجرَّة، وتَرَكَ للإنسان حرية الاختيار.

قال أبو زكريا: حسناً.. فهمنا طريق الإيمان وعرفناها، ولكنَّ البعض يقول: العمل الصالح هو فقط العبادات الصِّرفة، وأنَّ عمران الحياة ليس من مهامِّ الدين، وأنَّ قيمة الحياة (الدنيا) لا تساوي شيئاً، وعمرانها ليس مطلباً، فما العمل الصالح الذي يتحدث عنه القرآن؟

فالأمة اليوم أكثر الأمم عبادةً؛ صلاةً وصياماً وحجَّاً وعمرةً.. ولكنها في مسارات الكرامة والحرية والعدالة والعمران، تشكو عجزاً وقصوراً يُغني فيه شاهد الحال عن المقال!

العمل الصالح

قال محمد: من السهولة فهم مراد القرآن الكريم حيث العمل الصالح، فذكر القرآن الكريم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 7]، وحدَّدَ هؤلاء بأنهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: 69].

ومن هنا عرض القرآن عمل هؤلاء ليُبيِّن لنا تعريف العمل الصالح.. فهؤلاء آمنوا وصلَّوا وصاموا وتصدَّقوا.. ولكنَّ الخطاب القرآني يطرح أبعاداً أخرى لا بدَّ من مشاهدتها حتى تكتمل الصورة.

قلت: لننظر إلى قضايا الدين الكبرى باعتبارها المطالب الكبرى للعمل الصالح، التي هي في مقام الغايات، وأنَّ سائر العبادات هي وسائل لصناعة الإنسان الذي يتحمَّل تلك الواجبات الحضارية الكبرى المنُوطة بالدين..

1. فسبب إنزال الرسالات: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: 25]؛ فالقسط الكوني مسؤولية المؤمن، فما متطلبات إقامته وتحمُّل مسؤوليته؟
2. ومهمَّة الرسول ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]؛ فمهمَّة توصيل الرحمة إلى العالم مهمَّةٌ تحتاج إلى قدراتٍ حضاريةٍ توازي عظم المهمَّة.
3. وقصة أبينا آدم وولديه: هي قصة الخطأ والتوبة والتعلُّم من الأخطاء.
4. وقصة موسى: هي قصة مواجهة الطغيان.
5. وقصة داود وسليمان: بناء الحضارة وإقامة العدل.
6. وقصة يوسف: إصلاح الاقتصاد.
7. وقصة ذي القرنين: هي الحضارة المتكاملة باجتماع عالم الأسباب والتقنية، وعالم القيم والعدل.

8. وقصة إبراهيم: المنطق العملي والجدل العقلي.

9. وقصة بلقيس: رجاحة العقل والقيادة الراشدة.

10. وقصة امرأة فرعون: الوعي والتربية.

11. وقصة بنات شعيب: الحياء والعمل.

فخلْف مطالب العبادة من توحيدٍ خالصٍ وصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ، تكمُن غاياتٌ في استقامة الإنسان وصبره على الأعمال الكبرى، فلن يتحقَّق العدل الكوني، ولن تصل الرحمة إلى العالمين، ولن يصلح الاقتصاد، ولن يتوقَّف الاستبداد، ولن يتوقَّف الفساد وسفك الدماء، إلا بوجود عالَم الأسباب والتمكُّن منه، ولا يصبح عالَم الأسباب نافعاً إلا إذا وُجِدَت القيادة الرشيدة، ولن يوجد القادة الصالحون إلا بالتربية، ولن تصلح التربية إلا بصلاح المنزل، ولن يصلح المنزل إلا بصلاح الأبوين..

إنها سلسلةٌ من المطالب، تلعب التزكية والعبادة دورها فيها كوسائل لذلك الغرض الأعلى: وهو بناء المجتمع الإنساني الصالح.

قال أبو زكريا: من الواضح اليوم أنَّ هذا الفهم الشامل للعمل الصالح قد تقزَّم، وانحصر الأمر فيه بالعبادات الصرفة، كبديلٍ عن الإطار الكلي لمفهوم العمل الصالح، رغم وضوحه في القرآن الكريم.

العمل الصالح في القرآن: عملٌ تزكويٌّ للفرد + عملٌ لتغيير الواقع

النسق القرآني

تابع أبو زكريا: قرأت كتاب "**النسق القرآني ومشروع الإنسان**"، قد يكون من المناسب أن نسجِّلَه في هذه الحوارات، فحبذا -لو أمكن- تلخيصه هنا!

قلت: إنَّ رؤية المشهد الكلي للتعايش البشري في التصوُّر القرآني مهمٌّ جدَّاً؛ لأنَّ سؤال الآخَر -أي: غير المسلم- في المجتمع المسلم يشوبه الكثير من الإثارات والتصوُّرات المختلفة، ونحتاج إلى تركيب صورةٍ غير مجزَّأةٍ لكل ما تتطلَّبه مسألة التعايش البشري. وهذا سيأخذنا في رحلةٍ في كتاب النسق القرآني.

النسق القرآني ومشروع الإنسان

تشجَّع محمد وأبو كيان للموضوع..

قلت: الكتاب قائمٌ على تصوُّر الإسلام ومشروع التعايش بين البشر المختلفين على أساسٍ منتظمٍ مكوَّنٍ من قاعدةٍ وطبقاتٍ ثلاثٍ تعلوها:

1. الطبقة الأساس للمقولات الكبرى المؤسسة.
2. طبقة مفاهيم التعايش والتساكن البشري.
3. طبقة الدعوة والحوار البيني بين المختلفين.
4. طبقة الحرب بداية ونهاية.

الطبقة الأولى: المقولات الكبرى المؤسِّسة

ففي الأساس يحدِّد القرآن وجود الخالق:

- وأنه مرتبطٌ بالموجودات بقانون الرحمة.
- وأنه ربُّهم جميعاً.
- وأنَّ إرسال الرسل بغرَضَيْن: التوحيد الخالص، وأن يقوم الناس جميعاً بالقسط.
- وأنَّ اليوم الآخر هو يوم العدل النهائي؛ حيث سيحصل الجميع على العدل الكلِّي.
- وأنَّ الإنسان عنده قابلية الإفساد وسفك الدماء، وعنده قدرة التعلُّم من أخطائه.
- وأنه مجبولٌ على الاختلاف، ومُطالَبٌ بالإعمار.

لكن.. حين يقرِّر القرآن الكريم أنَّ الإنسان قادرٌ على الإفساد وسفك الدماء، ويقرِّر أنه مفطورٌ على الاختلاف، وعلى الشحِّ، وعلى طلب الدنيا، ينفتح الباب واسعاً أمام سؤالٍ كبيرٍ: **هل يمكن للمختلفين العيش المشترك؟**

الطبقة الثانية: شروط التعايش بين المختلفين

يُبيِّن القرآن الكريم أنَّ هناك قواعد أو شروطاً ثلاثةً، إن توفَّرَت، أمكن أن يتعايش بها المختلفون عقديَّاً؛ بل كل البشر، وهي:

1. البِرُّ.
2. القِسْطُ.
3. احترام التعاقد.

فإنْ توفَّر **حُسْنُ الخُلُق** -الذي هو الغراء اللَّاصق الذي يشدُّ البشرَ بعضهم إلى بعضٍ، وهو المقدَّم على ما سِواه، وهو أساس ما سِواه-..

وإن توفَّر القانون -الذي ينطبق على الجميع، ويقف الناس أمامه سواسيةً، فلا تفاضل إلا بالحقِّ-..

وإن توفَّر التراضي عبر التعاقد الحرِّ بين الناس على الكليات الجامعة..

كلما تحقَّقت هذه الشروط، أمكن للبشر العيش المشترك؛ فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]، ويقول: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، ويقول: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: 177]؛ فتلك أسس العيش المشترك، وذلك قولٌ حكيمٌ.

ولكن.. يَرِدُ على العقل سؤالٌ مشروعٌ من حيث كون البشر يدعون إلى أفكارهم، وذلك مثار الخلافات والصراعات، فكيف يضبط القرآن الكريم بوصلة تلك الحوارات حتى لا تهدم السلَّم الأهلي، ولا تعكِّر صفو المجتمع؟

الطبقة الثالثة: قواعد الحوار بين المختلفين (الدعوة)

ما قواعد الدعوة بين المختلفين للمحافظة على السلم والأمان؟

إنَّ القواعد في القرآن الكريم تبدأ من الأرضية التي ينطلق منها الداعية كما تشرحها الآية (83) من سورة القصص: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، إنها نيَّة المحاور في بيان الحقِّ دون رغبةٍ في إخضاع الغير والتسلُّط عليه.

ثم تأتي قاعدة استبطان التساوي عند الحوار أمام الحقيقة في قوله تعالى من سورة سبأ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24]، لحظة التفكير في الحوار بأن تكون هناك فرصٌ متساويةٌ بين الفرقاء لاحتمال الخطأ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وتستمرُّ حملة القرآن الكريم لتوجيه الدعاة في أمهات الوساوس المحتملة:

- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21-22].
- ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].
- ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام: 107].
- ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 107].
- ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: 45].

فماذا يبقى بعدها سوى سلطة الدليل والبرهان؟

وهنا يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111]، ويوجِّه مَن يسوق الدليل أن يتَّسم أسلوبه بالرقيِّ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وإذا توتَّر الجوُّ وخرج البعض عن حدود الأدب، فالردُّ عليهم لا يكون بالنزول بالحوار عن رُقِيِّه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

فإن أصرَّ أحدٌ أن يقود الحوار إلى مسار الشرِّ، أتى توجيه القرآن الكريم للداعية: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

والإنسان قد لا يتوقَّف عند الحوار على قبول الاختلاف، فقد يسعى لفرض رأيه بقوة السلاح، فماذا يقول القرآن الكريم في ذلك؟

الطبقة الرابعة: الحرب بداية ونهاية والعودة إلى السلم

يبيِّن القرآن الكريم سبب القتال في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]، فالآخر هنا مُعتدٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]، والعدوان يُرَدُّ بمثله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، هكذا: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 64].

والحرب فيها الشدَّة والغلظة، تحكمها أخلاقياتٌ من طرف أهل الإيمان، وتصل إلى نهاياتها عندما يُسَلِّم الطرف الآخر بمبدأ السِّلْم، ويُظهِر رغبته في العودة إلى مبدأ التعايش، فحينها يأتي التوجيه القرآني: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 61]، هكذا تعود الدائرة للانغلاق عند نقطة السِّلْم.

قال أبو زكريا: يبدو لي أننا بحاجةٍ إلى هذه الرؤية الكلية لنستعيد إنسانيَّتنا كبشرٍ نريد أن نعيش مع البشر.

الإسلام مشروعٌ للتعايش الأمثل بين البشر كلِّهم؛ فهو نسقٌ متكاملٌ

قال محمد: فَهْمُ الصورة الكلية ضرورةٌ، فكم أضرَّ بنا النظر الجزئي.. بل أستطيع أن أرى الآن فيما أحفظ من القرآن الكريم تمايزاً بين دائرة الحرب كاستثناءٍ، ودائرة التعايش المبنية على الأخلاق الحسنة وحفظ الحقوق، ودائرة الدعوة المبنية على الرفق.

قلت: قطعاً.. مَنْ تعامل مع الدين على أنه آيات حربٍ، فقد هدم المعمار القرآني؛ فالقرآن الكريم يشكِّل نسقاً بنائيًّاً لآخر حصنٍ للبشرية تأوي إليه.. نسقٍ ينظِّم دائرة التعايش، والدعوة، والحرب، ويعطي كل دائرةٍ حقَّها وواقعها الملائم.

هكذا انتهت جولة اليوم، ولكن لم ينتهِ الحديث..

قلت: أمامنا قضايا عديدةٌ لرؤية الإسلام الأوَّل بين ركام القرون..

قال محمد: نحتاج إلى أن ننظر في مقاصد الشريعة، فهي مدار حديثٍ طويلٍ..

قلت: فكرةٌ جيدةٌ.. فلنجعلها مدار حديثنا غداً إن شاء الله تعالى..

يوم جديد

الجو البارد، والمطر الخفيف، والقهوة التركية الساخنة، والنظر إلى المارة، وحركة الشارع، والصحبة الطيبة.. تفتح الأفق والتفكير.

ومن هنا بدأ الحديث بسؤالٍ من أبي زكريا: ما مقاصد الشريعة في الفرد؟

مقاصد الشريعة في الفرد

قال محمد: يحضرني تقسيمٌ جميلٌ قرأته لأحد الفضلاء؛ فهو يرى أنَّ الدين جاء ليعمل في اتجاهين؛ **ظاهرٍ، وباطنٍ.**

فالظاهر: يمسُّ الفعل الخارجي.

والباطن: يمسُّ مرآة النفس، وهو المقصود الأسمى، وهو كالتالي:

- **مقصد التعبُّد:** فمِن حيث الظاهر: هناك الصلاة والصيام والحجُّ، ومن حيث الباطن: هناك حضور القلب بالذكر على الدوام.
- **مقصد التعقُّل:** يحثُّ الدين على النظر في الكون، وطلب العلم، وبناء قدرات التحقُّق والنظر، ومن وراء ذلك يريد طهارة القلب، وطلب الحقِّ، وعدم الميل مع الهوى.

- **مقصد التحرُّر**: ففي الظاهر: يُطلَب التحرُّر من كل ما يعيق ارتقاء الإنسان من الكسل، والاستعباد، والاستغلال، واتِّباع الآباء، والتقاليد المنحرفة، وفي الباطن: يريد التجرُّد من النوايا الفاسدة والشهوات السيئة.
- **مقصد التخلُّق**: ظاهراً: العمل بمكارم الأخلاق، وباطناً: صبغ النفس بالفضيلة.
- **مقصد التوحُّد**: ظاهراً: التعاون البشري في الخير، وباطناً: توحيد المكيال والميزان والمعيار.
- **مقصد التكمُّل**: ديمومة العمل على تنمية الظاهر والباطن دون انقطاعٍ.

قال أبو كيان: أعجبني التقسيم لباطنٍ وظاهرٍ، أو مطلب "حُسْن الْمَظْهَر وَالْمَخْبَر"؛ لأنَّ كليهما محطُّ نظر الخالق: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18]، ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16].

فحُسن الظاهر يجب أن يقابله حُسن الباطن؛ بل هو موضع القبول، فعمل الظاهر لاكتساب حُسن الباطن، فمَن غفل عنه، غفل عن الغاية والهدف، وانشغل بالوسيلة.

جوهر الدين هو صلاح الباطن،
والظاهر ضابط ومظنَّة الذكرى على أهميَّته

مقاصد الشريعة في الفرد	ظاهراً	باطناً
مقصد التعبُّد	الصلاة والصيام والحج	حضور القلب بالذكر على الدوام
مقصد التعقُّل	النظر في الكون، وطلب العلم، وبناء قدرات التحقُّق والنظر	التفكّر يؤدي إلى طهارة القلب، وطلب الحق، وعدم الميل مع الهوى
مقصد التحرُّر	التحرُّر من كل ما يعيق ارتقاء الإنسان من: الكسل، والاستعباد، والاستغلال، واتِّباع الآباء، والتقاليد المنحرفة	التجرُّد من النوايا الفاسدة والشهوات السيئة
مقصد التخلُّق	العمل بمكارم الأخلاق	صبغ النفس بالفضيلة
مقصد التوحُّد	التعاون البشري في الخير	توحيد المكيال والميزان والمعيار
مقصد التكمُّل	ديمومة العمل على تنمية الظاهر	ديمومة العمل على تنمية الباطن

قال أبو زكريا: هذا يقودنا إلى أمهات الأخلاق في القرآن الكريم، فما هي؟ وما الذي سمعه المتلقي الأوَّل قبل أن تُفرض الألفة عليها "قانون الخُفُوت"؟

قال محمد: وما "قانون الخفوت"؟

ضحك أبو زكريا قائلاً: الآن نَحُتُّ المصطلح، وأقصد به أن كلَّ جديدٍ مثيرٌ عند وُرُودِه، ولكن مع اعتياد الإنسان عليه، يبدأ بمعاملته كأنه مُسَلَّمةٌ، ولا يعود يُلتفَت إليه.

فانظر كم نقرأ القرآن في حياتنا، ولكنَّ شيئاً ما يحجب المعنى، إنَّه الأُلفة، فيخفَت الوهج..

وهذا يعني أنَّ الصدمة والانجذاب تقلُّ حدَّتها مع الزمن، فيتحوَّل الإنسان من التفكُّر فيه إلى تمريره.

قال أبو كيان: صدقت، فالقراءة السريعة هي الغالب، ومن دون أيِّ تفكُّرٍ مُنتِجٍ.

أمّهات الأخلاق

قلت: لننظر إلى عبارة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ..﴾، لتتكشف لنا أمهات المطالب الأخلاقية القرآنية.. ولكن منعاً للإطالة سنلغي المكرَّرات!

1. **المحسنين:** فالإحسان في كل شيءٍ مطلوبٌ.
2. **التوَّابين:** مراقبة النفس والتوبة من كل ذنبٍ.
3. **المتقين:** كفُّ الأذى عن الخلق والوجود، أبرز معالم التقوى.
4. **الصابرين:** تحمُّل المصاعب.
5. **المتوكِّلين:** العزم والعمل.
6. **المقسطين:** أهل العدل والاستقامة والإنصاف، وهي أكثر الأمور تكراراً.
7. **المطَّهِّرين:** المتبرِّئين من كل نجسٍ حسِّيٍّ أو معنويٍّ.

والأخلاق التي يبغضها الله.. لننظر إليها في عبارة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ..﴾.

1. المعتدين.
2. الفساد.
3. كل كفَّارٍ أثيمٍ.
4. الظالمين.
5. كلَّ مختال فخور.
6. مَ كان خوَّاناً أثيماً.
7. الفَرِحين.

ففي مستوى المحبوبات العليا يأتي: **الإحسان والقسط** عند الحركة للخارج.

وفي مستوى الأمور المُبْغَضة يأتي: **الظلم والاعتداء والخيانة والكِبر** كآفاتٍ كبرى.

فالدين يريد من الإنسان أموراً في الفعل، وأموراً في الكفِّ، وبها يصبح الإنسان نموذجاً لمراد الشارع.

قال أحمد: بهذه البساطة والوضوح يتحدَّث القرآن..

قلت: ذلك هو الإسلام الأول، إسلامٌ عمليٌّ مباشرٌ، وقوته في بساطته.

بدون البُعد الأخلاقي لا يوجد دينٌ ولا تديُّنٌ

قال أبو زكريا:

عرفنا الخارطة الكلية في سورتي الفاتحة والعصر.

وعرفنا كيف تنتظم حياة البشر للتعايش الإنساني.

وعرفنا أمهات الأخلاق..

فما الخارطة التفصيلية للأحكام؟ وكيف كان يتلقَّاها الناس قبل وجود المدارس والكُلِّيَّات ورجال الشريعة وملايين الكتب والتفصيلات..

قلت: دعونا نجلس للعشاء الآن، ثم غداً يومٌ جديدٌ، ونرى كيف سنعالج ذلك التراكم الطويل من التفصيلات، الذي قد يمضي الإنسان عمره بحثاً دون أن يحيط به!؟

مضت جلسة العشاء لطيفةً كالعادة في أحاديث متنوعةٍ وأخبارٍ، وافترقنا على أمل اللقاء في الغد، لنواصل رحلة استكشاف الإسلام الأول.

لقاء جديد

يومٌ آخر كأيام لندن، الجو تملؤه الغيوم، لكنَّ شمسه أطلَّت صعبة المراس، والفريق يسير كالعادة في طريقه المعتاد لإكمال الجولة، ويُتحفنا محمد بحواراته مع من حوله في وسائط التواصل الاجتماعي، فتندمج الفلسفة بالدين بالحديث اليومي عن الرياضة وأخبار العالم الإسلامي، وتحطُّ بنا الركاب في مقهىً يطلُّ على شارعٍ جانبيٍّ في أحد الشوارع المتفرّعة من (أكسفورد)، مقهىً هادئٍ لا يوجد فيه أحدٌ، على عكس مقاهي لندن المعتادة.

ويضحك أبو كيان سائلاً أبا زكريا: هل أخبرتهم بأن يُخلوا المكان..! (يضحك الجميع)..

يُحَمْلِق محمد في قائمة المشروبات مرَّةً أخرى، يعلِّق أبو كيان كالعادة، يطلب الجميع الشاي، ويظهر أنَّ لمحمد طلباً جديداً، يردُّ محمد: "شاي أيضاً!".

يبتسم أبو كيان قائلاً: "ما كان من الأوَّل".

يعود أبو زكريا متسائلاً: وقفنا عند الأحكام، وكيف كان الناس يتلقَّونها في مهد الرسالة، هل نُكمل؟

قلت: طبعاً.. لنبدأ من هذه النقطة..

قال محمد: كيف يمكن تخيُّل أناسٍ معظمهم لا يقرأ ولا يكتب، ولا توجد كتبٌ يُرجع إليها تُبيِّن بالتفصيل ما هو حقيقيٌّ وما هو افتراضيٌّ، وفي غياب مئات القواعد الكبرى والقواعد الفرعية التي يتمُّ الاحتكام إليها، وفي غياب أيِّ عملٍ مدرسيٍّ أو جامعيٍّ، أو حلقات الفقه والأصول والحديث، والفرق والعقائد..

كيف كان المسلم الأوَّل يتحرَّك؟

أكمل أبو كيان: بل إنَّ كل الأحكام القرآنية لم يكن قد تكامل تنزيلها..

قلت: هذا صحيح.. فمثلاً: يقول البعض في الأذان: إنه معروفٌ من الأنبياء، ومنهم إبراهيم. وقال ابن حجر: هذا غريبٌ لا يصحُّ منه شيءٌ، إنما كان ذلك في المدينة، وليس في مكة؛ يعني: ليس مع حادثة الإسراء.

فالصلاة شُرِعَت دون شكلٍ للنداء إليها. أمَّا في المدينة، فيروي نافع عن ابن عمر أنهم اجتمعوا يوماً يتحيَّنون الصلاة ليس يُنادى لها -يعني: يرقبون الوقت بمراقبة حركة الشمس-، فتحدَّثوا: لو كان هناك ناقوس كالنصارى، أو حتى بوق كاليهود، ليعلموا مواعيد الصلاة، فاقترح عمر أن يبعثوا رجلاً للنداء، فبعث رسول الله ﷺ بلالاً لينادي، كما روى البخاري.

أمَّا صيغة النداء، فهي قصة حلمٍ رآه عبدالله بن زيد، فأخبر الرسول ﷺ وثنَّى عليه عمر أنه رأى ذلك الحلم، فأقرَّهم الرسول ﷺ، وأصبح هناك أذانٌ نعلم به ميقات الصلاة.

قال محمد: إذاً؛ فقد كانت هناك حاجةٌ عمليةٌ مستجدَّةٌ جعلت الأذان ممكناً.

قال أبو زكريا: هذا أمرٌ مثيرٌ للاهتمام، فهو ليس وحياً نزل على الرسول ﷺ، إنما رؤيا لصحابيَّيْنِ أقرَّها رسول الله ﷺ لعمليَّتها.

قلت: وحلٌّ لمشكلةٍ كانت تواجِه المؤمنين حينها.

هَمهَمَ أبو كيان قائلاً: واضحٌ ومنطقيٌّ.

قلت: لنبدأ من نقطة بيان القرآن الكريم، ثم نُعَرِّجُ على أحد أمثلتها العملية.

فالله يقول في محكم كتابه في سورة البيِّنة الآية 5: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، وهاك روايةَ أحد هذه المشاهد:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد.. فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **(خمس صلواتٍ في اليوم والليلة)**، فقال الرجل: هل عليَّ غيرها؟ قال ﷺ: **(لا، إلا أن تطوَّع)**، قال رسول الله ﷺ: **(وصيام رمضان)**. قال: وهل عليَّ غيره؟ قال ﷺ: **(لا، إلا أن تطوَّع)**، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فأعاد الرجل السؤال: وهل عليَّ غيرها؟ قال ﷺ: **(لا، إلا أن تطوَّع)**. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: **(أفلح إن صدق)** رواه البخاري في صحيحه، وفي روايةٍ: **(دخل الجنة إن صدق)**.

قال محمد: يا سلام.. الأساسيات أولاً...الأساسيات هي الغرس الأوَّل المهمُّ..

قال أبو زكريا: لكن، **كيف سيعرف تفصيلات شيءٍ مثل الوضوء** وكل ما ذكر.. وليست هناك كتبٌ ولا حلقاتٌ للتدريس؟

قال محمد: سيذهب إلى المسجد، ويجد الناس تتوضأ، فإن أساء، سيجد من يُرشده دون كثرة كلام، وفي قصة الحسن والحسين حين رَأَيَا رجلاً عجوزاً يتوضأ وقد أساء الوضوء، فقالَا له: اختلفنا أنا وأخي حول أيُّنا أحسن وضوءاً، فاحكم بيننا، فجعلَا يتوضَّآن أمامه، ويتناقشان حتى تعلَّم الرجل الوضوء عمليَّاً.

قال أبو زكريا: إذاً؛ فهي "**السنن العملية**" التي تمَّ تلقِّيها عبر الممارسة المتكرِّرة، فعلَّمها الناس بعضهم بعضاً دون حاجةٍ إلى وسيطٍ آخر كالكتاب.

قلت: الكتاب أصبح ضرورةً اليوم، فهو وسيلة حفظ المعرفة وإشاعتها، ولكن في غيابه تعلَّم الناس الدين عمليَّاً، كما في عصر الرسالة، ونحن نحاول أن نُطِلَّ على تلك اللحظة التي كان كل شيءٍ فيها بكراً، لم يتشكَّل وفق العصور والتصوُّرات.

قال محمد: لو كنَّا نأخذ الشخص المستجدَّ ليرى الوضوء عمليَّاً والصلاة عمليَّاً.. لو.. لو..

قلت: هناك زاويةٌ أخرى.. وهي التعلُّم بقدر الحاجة، والسؤال بقدر الحاجة، فلم يكن مطلوباً من أحدٍ أن يتعلَّم كمَّاً معيَّناً من الدين. فكلٌّ يأخذ بقدر وعائه..

ولنضرب مثالاً: معظم المرويَّات هي أحاديث آحادٍ؛ يعني: ردَّ بها رسول الله ﷺ على سائلٍ بعينه، وفي أحيانٍ كثيرةٍ بعيداً عن الآخرين، ولم يطلب منه نقلها إلى الآخرين؛ بحيث لو احتفظ بالمعلومة لنفسه، لم يأثم، ومن هنا كانت إجاباتٍ مركَّزةً وفق احتياجات السائل، ولننظر إلى روايةٍ طويلةٍ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: كنت مع النبي ﷺ في سفرٍ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير -حركة الحياة العادية؛ فليس هناك دعوةٌ لبلاغٍ عامٍّ-، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. فقال ﷺ: (**لقد سألتني عن عظيمٍ، وإنه لَيسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه: تعبُد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجُّ البيت**).

قلت: إذاً؛ فهي الأساسيات.

ثم قال رسول الله ﷺ متابعاً: (**أَلَا أدلُّك على أبواب الخير: الصوم جُنَّةٌ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل**).

ثم قال ﷺ: (**أَلَا أخبرك برأس الأمر كلِّه، وعموده، وذروة سنامه؟**)، قلت: بلى يا رسول الله. قال ﷺ: (**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**).

ثم قال ﷺ: (**أَلَا أخبرك بملاك ذلك كلِّه؟**)، قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ ﷺ بلسانه وقال: (**كُفَّ عليك هذا**).

قال معاذ ﷺ: قلت: يا رسول الله، وإنَّا لَمؤاخذون بما نتكلم به!؟ فقال ﷺ: (**ثكلتك أمُّك يا معاذ، وهل يُكبُّ الناسَ على وجوههم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم**).

هكذا.. كلما اتَّسع وعاء السائل، زاد عدد الوصايا.. وتنوَّعت المقاربة والتعبيرات.

أتْبَعَ محمد: هذه حقيقةٌ بسيطةٌ يمكن معرفتها في المطالعة في المرويات، فغالبها تعالج جوانب يحتاجها السائل.. وغيره يحتاج غيرها.

فانظر إلى رجلٍ آخر يطلب من رسول الله ﷺ أن يوصيه، فقال: يا رسول الله أوصني. قال ﷺ: (**لا تغضب**).

وآخر يسأل: دلَّني على عملٍ إذا عملته أحبَّني الله والناس. قال ﷺ: (**ازهد في الدنيا يحبَّك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبَّك الناس**).

أو سائل يسأل: أيُّ الإسلام أفضل؟ فيقول المصطفى ﷺ: (**مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده**).

ويسأل أحدهم: أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال ﷺ: (**تطعم الطعام، وتقرئ السلام على مَن عرفت ومن لم تعرف**).

وآخر: (**أن تكفَّ شرَّك عن الناس، فإنها صدقةٌ منك على نفسك**).

أو قوله عليه الصلاة والسلام: (**مَن أحبَّ أن يُبسَط له في رزقه، ويُنسَأ له في أثره، فليصِلْ رحمه**).

أو سائل يسأل: علِّمني شيئاً أنتفع به. فقال ﷺ: (**اعزل الأذى عن طريق المسلمين**).

إذاً؛ فهي صيدليةٌ يصف منها رسول الله ﷺ الدواء المناسب لحال المريض..

تدخَّل أبو كيان: نحن نجد أنفسنا أمام السُّنَّة العملية التي ستشكِّل العمود الفقري للإسلام، وستنتقل من جيلٍ إلى جيلٍ دون خلافٍ؛ كالأذان، والصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، والأعياد، التي تعتمد على التكرار والانتشار وتلقِّي الكافَّة عن الكافَّة، ومن هنا رغم آلاف الخلافات حول تفصيلاتٍ كثيرةٍ، ولكن هناك القدر المشترك في كل أقطار الإسلام، يصنع هويَّتها المشتركة المسلمة، ويسمو فوق كل الخلافات، وذلك هو جوهر الإسلام المحفوظ مع الوحي، لم يتأثَّر بمرور الزمن.

دور السُنَّة العملية في توحيد الأمَّة

قال أبو زكريا: ممَّا سبق؛ بدا لي أنَّ القرآن رسم خارطة الطريق والغايات الكبرى، وأعطى القيم المؤسِّسة، وأنه بدون رؤية تلك الصورة التأسيسية نفقد الترابط، وأنَّ أمهات العبادات تكفَّلت بها السُّنَّة العملية، فوحَّدَت بين المسلمين رغم كثرة الخلافات في التفصيلات النظرية، وبالتالي فإنَّ المُقبل على الإسلام يُحسِن إسلامه بمعرفة القضايا الكليَّة والجامعة للمسلمين.

قلت: هذا يكفي اليوم.. فقد حان موعد العودة إلى البيت بعد استكمال الجولة.

ضحك محمد متسائلاً: كم بقي من العشرة آلاف خطوة المقرَّرة؟

قلت: القليل.. هيا بنا..

مرَّت دقائق دون أن ينبس أحدٌ ببنت شفةٍ.. ربما للتفكير في كل ما قيل..

هكذا انتهت جولةٌ.. لتبدأ أخرى في يومٍ آخر..

يوم جديد

الساعة الخامسة عصراً في لندن، والجو على غير العادة مشمسٌ، وحرارته عاليةٌ بالنسبة لبقية الأيام، والمشي في الشوارع يحتاج إلى أن يتَّبِع فيه المرءُ الظلَّ حيث النسيم عليلٌ، أما شمس لندن فلا وقاية منها.

بدأ الأحبة يتوافدون، أولهم وصولاً أبو كيان، وتبِعه محمد، ثم أبو زكريا.

قال أبو زكريا: أنا في شوقٍ لاستكمال الحوار.

قلت له: اجلس نطلب شاياً أو قهوةً.

علَّق أبو أمان (محمد): أو ربما آيس كريم.

قلت له مازحاً: اطلب ما تشاء.. فالحساب على أبي أمان..

تبسَّم أبو كيان.. وردَّ محمد: أبشِر، أنا جاهز.

طلب كل واحدٍ منّا ما أراد.. وفضَّلْتُ القهوة.

قلت: نحن تحدثنا عن مقاصد الدين في الفرد.. فلننظر إلى مقاصد الدين في الأمة، ماذا ترَوْن؟

قال محمد: دعني ألخِّص ما سبق:

نحن تصوَّرنا أنَّ هناك (الإنسان.. الإيمان.. العمل الصالح.. هذا يقود إلى العمران الأخلاقي.. ثم الحساب والنعيم الأبدي).

قال أبو زكريا: وأنا أتذكَّر أننا قلنا: التساكن البشري يقف على قواعد ثلاثٍ: (البر، والقسط، واحترام التعاقد).

قلت: لننظر في الموضوع بطريقةٍ مختلفةٍ قليلاً عن الزاوية المعهودة، فلننظر في ستِّ مساحات:

1. **في الوجود:** مطلب توحيد الموجِد، والرحمة بالموجود.
2. **في الإنسانية:** التعارف والتفاهم ووقف الحروب والفساد.
3. **في الأمَّة:** بسط الرحمة من خلال السعي إلى العدل الكوني.

4. **في المجتمع**: التعاقد والبرّ والقسط.

5. **الأسرة**: حراستها وإشاعة الودِّ فيها.

6. **الفرد**: التسامي المستمرّ.

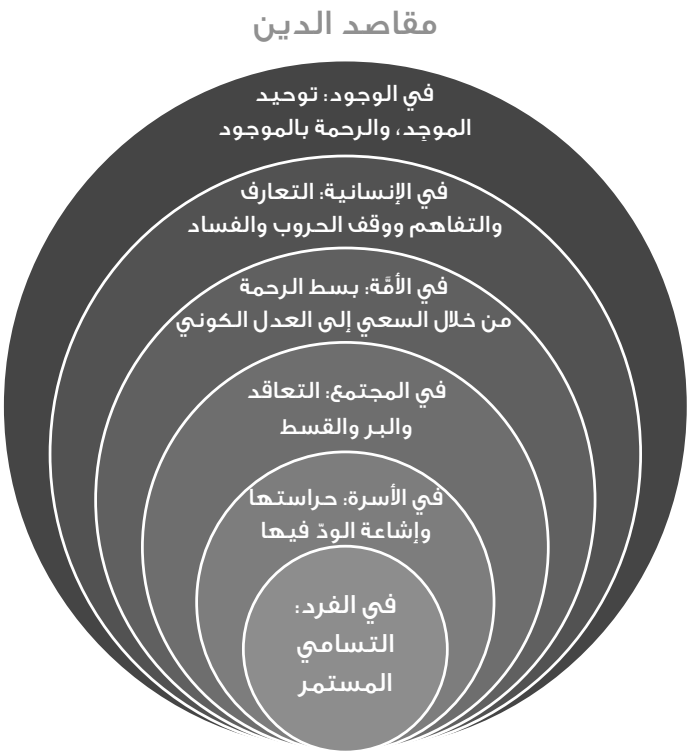

لا يجد المرء عناءً في تتبُّع النصوص التي تقود إلى ذلك؛ نظراً لكثرتها، ولكن ربما نحتاج إلى أن نرى ترتيب الأشياء التي عالجها القرآن الكريم بعد معالجته للنظرة في الوجود؛ أي: بتصوُّر هذا الإنسان لمصدر الوجود؛ وهو الله تعالى، ولعلاقة الخالق بهذا الوجود والمخلوقات..

قلت: قبل أن نواصل.. نحتاج التقاط الأنفاس..

قال محمد: صحيح.. فبعد بساطة الكلام، دخلنا من حيث لا نشعر بالتعقيد، فلم يكن المسلم الأوَّل يتلقَّى مثل هذا الكلام المعقَّد، ولم تكن المادة مركَّزةً أو تُعطى متتاليةً في مجلسٍ واحدٍ.. هذا كثيرٌ..!

وافقه أبو كيان قائلاً: هل من طريقةٍ لتجنُّب هذا المسار المعقَّد؟ فكلماتٌ مثل: توحيد الموجِد، والرحمة بالموجود، صعبةٌ على المتلقّي وسائر المفاهيم.

قال أبو زكريا: صحيح.. نحتاج شرحاً أبسط.

قلت: لنأخذ استراحةً ولنفكِّر.. فالأمر ليس بيسيرٍ؛ خاصَّةً في باقي الأمور، فحتى التسميات؛ مثل: العبادات، والمعاملات، والحكم، والسياسة، لم تكن مصطلحاتٍ مألوفةً، وهي ثقيلةٌ على السمع، ومن المؤكَّد أنها كانت غريبةً عن المستمع الأول.

قال أبو كيان: لنطلب الشاي.. ولنغيّر مجرى الحديث قليلاً.. لعلَّنا نجد حلَّاً لهذا التحدي..

هكذا انتقل الحديث إلى أجواء لندن وحوارات الوسائط الاجتماعية وأنماط تفكير الناس..

وكان أبو زكريا منهمكاً في التفكير.. نظرنا إليه جميعاً ننتظر مشاركته.. انتبه قائلاً: وجدتُها.. الأفضل أن نتحدث عن مجتمع مكة والمدينة، ونرى عمليَّاً كيف تعامل معهما الوحي على الأقل في معالمه الكبرى.

قال محمد: من الواضح أنَّ الوحي رغم عظمة الأهداف التي وضعها؛ كالرحمة بالوجود، والعدل بين بني البشر، ولكنه سلك مسلكاً متدِّرجاً؛ فتشريعاته في أغلبها كانت إصلاحيةً لما هو قائمٌ..

قال أبو كيان: مثل ماذا؟

قال محمد: هناك كثيرٌ.. فمفهوم الإله الخالق ليس غريباً على العرب، إلا أنَّ الوحي أضاف إليه: أنَّ الخالق لم يخلُق الخلقَ ويتخلَّ عنهم، كما كان فهم العرب حينها؛ بل وصلهم بالرحمة والنبوَّات، وشَرَّع لهم..

ومفهوم الحج والعمرة كان معروفاً في الجاهلية، إلا أنَّ الوحي أزال عنه الوثنيات، وأبقى جوهره، كرمزٍ لملَّة إبراهيم، وأبقى الأشهر الحرم، وارتباطها بتجارة قريشٍ، ومواسم القتال بين العرب، وطالب باحترامها.. وفتح المخارج من الرِّقِّ، ولم يصطدم به كنظامٍ.. هي قصةٌ طويلةٌ تعطينا منهجاً يسير بالناس من حيث هم في اتجاهٍ ما هو أعلى، ولكنه لا يستكبر على الواقع أو يُنكر قوَّته.. فاستبقاء الأحلام الكبرى شيءٌ، والقفز إليها دون اعتبار الواقع شيءٌ آخر.

قال أبو كيان: هذا يجعلنا نقول: إنَّ سقف الإسلام لم يستنفد أغراضه لحظة الرسالة؛ بل هو صاعدٌ باستمرارٍ نحو مزيدٍ من الكمالات، فكلما تطوَّرَت البشرية، وجَّهَهَا الوحي إلى الكمالات المطلوبة، وعالج قصورها دون أن يفترض قالباً نهائيَّاً مناسباً لكل مجتمعٍ..

المنهج العملي للدين: الاعتراف بالواقع والارتقاء

الصلاة

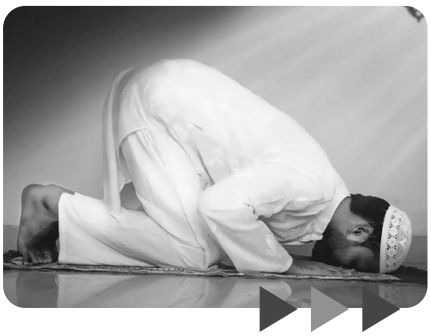

قلت: حسناً.. إعلان (لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله) نقطة دخولٍ في الدين، وهي شهادةٌ وإقرارٌ يترتب عليه تبِعاتٌ.. وعلينا أن ننظر بعمقٍ إلى أكثر شيءٍ يتكرر بعدها من مطالب الإسلام، وهو الصلاة، وهي نوعٌ من الذكر المُقَنَّن، له صورةٌ؛ كالتكبير للإحرام، والركوع، والسجود، وهو يتكرَّر خمس مرَّاتٍ في اليوم، وهو في مظهره لقاءٌ بالخالق يتجدَّد، وفي باطنه دوام الذِّكر ومظنَّة عدم الغفلة عن الله وأوامره، وله غايةٌ تتقصَّد الابتعاد عن بذاءة اللسان، وعن كل ما ينكره الذوق السليم والشرع، وتلك أبعادٌ ثلاثيةٌ.

قال أبو كيان: أعجبتني فكرة الأبعاد الثلاثية، فكأنك رسمت مثلثاً أحد أضلاعه: حركات الصلاة، والآخر: هو روحها، وهو الذكر، وثالثها: هو الغرض منها، وهو ضبط النفس قولاً وعملاً.

الغرض من الصلاة: ضبط النفس قولاً وعملاً

تابع أبو زكريا: الذي لفتني هو الارتباط العميق بين العمل وأثره الاجتماعي.. لكن أظنُّ أنه حين لا يُلتفَت إلى الغاية من الصلاة، يتولَّد مجتمعٌ شكلانيٌّ يحرص على الحركات، ويغيب منه الضلعان الآخران، وهما: الصلة بالله، وكفُّ الأذى عن الخلق.

قال محمد: تخيَّل فقط.. لو أدرك الإنسان هذَيْن البُعدَيْن: فاتَّصَلَ قلبُه بالله، لَفاض بالرحمة، ولو فاض بالرحمة، لَأصبح كفُّ الأذى عن الخلق سَجِيَّةً لا تَكَلُّف فيها..

وأردف محمد: يحضرني قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]، وهي ثلاثيةٌ تجعل الإيمان والصلاة مقدمةً لفعلٍ إعماريٍّ، وتجعل المداومة على الإنفاق علامةً لفاعلية الإيمان والصلاة.

قال أبو زكريا: يخطر في بالي ربطاً للأمور: أنَّ كفَّ الأذى أول طريق الخير، وتعبيد الطريق بالإنفاق في سبيله مِن كل المواهب التي أعطانا الله إياها.. المال.. العقل.. الوقت.. المهارات.. الجاه.. كلها نِعَمٌ.. والإنفاق منها مطلبٌ ربانيٌّ يبني على تلك المرحلة الأولى.

قلت: هكذا صنع القرآن الكريم أول نموذجٍ فلسفيٍّ مُبَسَّطٍ تستقرُّ عليه الحياة البشرية المتوازنة.. وأقول: (متوازنة)؛ لأنها تجمع بين أشواق الآخرة ومطالب الحياة على الأرض بعزَّةٍ وكرامةٍ.

قال أبو زكريا: فهمنا المعاني الثاوية خلف مظاهر الحركة..

قال محمد: لو نظرنا إلى الآيات والمروِيَّات الواردة، لَرأينا جماليات القرآن وعلاقتها بالمروِيَّات حين تتَّسق..

قلت: أكمِل يا محمد..

قال: في سورة العنكبوت الآية 45: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

فهناك الصلاة، وهناك أثرها في القلب الذاكر، وهناك فاعلية الصلاة في كفِّ الأذى عن الخلق كنقطة ارتكازٍ للفعل بعدها، ومن هنا جاء الأثر: (**مَن لم تنهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر، لم يزدَدْ من الله إلا بُعداً**).

وفي روايةٍ: (**مَن لم تنهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر، فلا صلاة له**).

وفي روايةٍ: (**لا صلاة لمن لم يُطِع الصلاة، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر**).

قال أبو كيان متنهِّداً: لو أننا درسنا الدين بهذه الكيفية، لَكان الأمر مختلفاً.. أثار تفكيري تذييل الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾؛ ففي نهاية المطاف المسافة كبيرةٌ بين من يؤدّي الفعل فقط، وبين من يؤديه وفي ذهنه الغاية منه، وشرط قبوله.

هكذا.. مرَّ اليوم دون أن نشعر.. والفريق ما زال متحمِّساً للاستمرار بحثاً عن الفهم الأول والمتلقّي الأول..

قلت: نشاط الفريق عالٍ اليوم.. ولكن حان وقت العودة إلى البيت.. وعندكم إجازة السبت والأحد.. فإن شئتم نلتقي الإثنين إن شاء الله..

لكنَّ الفريق أصرَّ أن نلتقي الأحد لاستكمال رحلة المشائين.. وهكذا تمَّ الاتفاق.. ومضى كلٌّ إلى عُشِّه على أمل اللقاء.

الفصل الثاني: تحدياتٌ تواجه المسلم اليوم

التقى الفريق في حديقة الهايد بارك؛ حيث تنتصب يوم الأحد في زاوية الحديقة طاولاتٌ يقف عليها بشرٌ، ويقف خلف بعضها بشرٌ، والكلُّ يعرض بضاعته:

- فهؤلاء مسلمون يعرضون الإسلام، ويتناوبون في الردِّ على أسئلة الجمهور، ويتحلَّق حولهم عددٌ من الناس.
- وأولئك مسيحيون يعرضون دينهم.
- وتلك مجموعةٌ يهوديةٌ تتكلم عن إسرائيل.
- وأولئك شيعةٌ يروون قصة الحسين ومظلوميَّته، ويسبُّون يزيد وبني أمية ومَن حالفهم.

وهناك.. وهناك.. جلسنا في زاويةٍ بعيدةٍ عن مكان المعارك الكلامِيَّة الطاحنة..

قال محمد: هذا هو حال الراغب في الإسلام في عصرنا، فكيف يعبر الإنسان المستجدُّ من معركة الطاولات المحتدمة لو فرضنا أنه انتهى إلى أنَّ الإسلام هو الدين الحقُّ..!؟ لكنَّ هناك صراعاً على عقل هذا الفرد الجديد..

- سيرى صراعاً حول الأحداث والتاريخ..
- سيرى خطاباتٍ ومجموعاتٍ مختلفةً تعبِّر عن التيارات والفرق المتنافسة على تمثيل الإسلام.
- سيرى التيارات والفرق والأحزاب الدينية، وستطارده الخلافات الفقهية.
- سيرى واقع الفقر والجهل في أقطار الإسلام.
- سيرى الفجوة في السلوك بين قيم الإسلام وبين السلوك العامِّ بين المسلمين.

قلت: حسناً.. فلنقَسِّمهم؛ ليسهل تناول كل واحدةٍ منها.

قال بهزاد: هناك تداخلٌ بين هذه القضايا، وهي لا تواجه المسلم المستجدَّ، ولكنَّها تواجه كل مسلمٍ اليوم.

ضحك أبو كيان وهو يقول: لنبدأ ممَّا أمامنا هنا في ساحة الهايد بارك، أو زاوية الكلام هذه.

كانت طاولةً كبيرةً يكاد المجتمعون حول الطاولة يقتتلون، لم نكن نحتاج أن نقترب كثيراً من الطاولة، فالموضوع معروفٌ، والرايات معروفةٌ، وبخلاف المجتمعين حول الطاولة، يوجد أفرادٌ قرَّروا أن يبتعدوا عن الضجيج في شكل اثنين أو ثلاثةٍ يشير كلٌّ منهم إلى الآخر بأصبعه مؤكِّداً كلامه..

قلت هذا سنسمِّيه:

أ. التاريخ والصراع حول الأشخاص والأحداث

تمَّ البلاغ المبين، وقال رسول الله ﷺ خطبته الخاتمة: (**لا ترجعوا بعدي كفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ**)، وبدأ المسلمون بعد رسول الله ﷺ بتجربتهم البشرية، فلا وحياً جديداً يتنزَّل، ولا رسولاً حيَّاً يُسأل، أمامهم القرآن الكريم، وما تيسَّر من هدي النبوَّة وتصرُّفات الرسول المبلِّغ.

واشتعل صراعٌ سياسيٌّ حول طبيعة الحكم وآلياته، وفي ثنايا هذا الصراع -كما في أيِّ نزاعاتٍ سياسيةٍ- حدثت انقساماتٌ حول مشروعية الحكم، أهو حكمٌ ناتجٌ عن تعاقدٍ حرٍّ وشوريٍّ، أم حكمٌ قائمٌ على التغلُّب والأمر الواقع؟

ومن قلب ذلك النزاع تراكمت الظروف أن يوالي أناسٌ معسكراً فيه عليٌّ ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وأن يوالي معسكرٌ آخر السلطة، كما يحدث دوماً، وبقي في الوسط من فضَّل عدم الدخول في النزاع.

وفي خضمِّ النزاع بين الأطراف، استدعى كل فريقٍ ما يُسنده من النصوص، وصاغ سرديَّته، ونشأ التشيُّع حول سرديَّاتٍ متعدِّدةٍ، صعدت بآل بيت رسول الله ﷺ إلى مرتبةٍ عبروا عنها

بعبارة (لا يبلغها بشرٌ ولا ملكٌ مقرَّبٌ) عند البعض، ولكن بقيت جموع المسلمين على ما ألِفُوه من الإسلام العامِّ، لا تتوسَّع في المنازعة.

وبين صعود وهبوط التاريخ الإسلامي، بقيت تلك المسائل عالقةً، وقد خمد أُوارُها عبر السنين حتى جاءت الثورة الخمينية وأشعلتها مرَّةً أخرى، فعادت تلك الغيوم الكثيفة فوق رؤوس الجميع، ووصلت إلى لندن..

ابتسم أبو زكريا: ها نحن عالقون في لحظةٍ تاريخيةٍ معيَّنةٍ، ربما 680 ميلادية؛ أي: على بُعْد 1344 سنةً هجريةً من لحظة حدوثها..

قال محمد: هل مَن مات قبلها ولم يعرف عنها، أو من عاش اليوم ولم يعرف عنها، وعرف ما عرفه الأعرابي البسيط (الشهادتين، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وأمهات القيم، وأنفق في إعمار الأرض وبسط الرحمة) مطلوبٌ منه أن ينضمَّ إلى أحد الفريقين ويصوِّت لأحد الحزبين؟

قال أبو كيان: منطقيًّاً لا!

قال أبو زكريا: من الصعب أن تعيش في المجتمع من غير موقفٍ من مثل هذه القضايا.. فهناك حقٌّ وباطلٌ.. أليس كذلك؟

قلت: هناك مسافةٌ بين الاعتبارات الأخلاقية الإنسانية العامَّة برؤية الخير والشر، والانحياز إلى الخير على حساب الشرِّ، وبين تحويل ذلك إلى دينٍ، ومن لم يتَّبِعْهُ، فلا مكان له في المصفوفة.

قال أبو كيان: الموقف باعتباراتٍ أخلاقيةٍ ومصلحيةٍ هو طبيعةٌ إنسانيةٌ، حتى في انتخابات البرلمان البريطاني بصفتنا مواطنين في هذا البلد، وبطبيعة الحال هناك متعلّقٌ من الضمير الديني يوجِّه تلك الاختيارات.. ولكن قطعاً هذا مختلفٌ عن الدين الصرف الجامع لمفهوم الإسلام، والذي ننطق بموجبه الشهادتين.

قال أبو زكريا: امممم.. الصورة أوضح الآن، فموقفي من حدثٍ تاريخيٍّ أو سياسيٍّ لا يؤثِّر على الإسلام الأساس ولا يغيّر طبيعته.. فهو باقٍ في كل الظروف.

ب. الفِرَق الدينية:

قال محمد: أظنُّ أنَّ الشيء ذاته ينطبق على الفِرَق التي نشأت حول القضايا الكلامية، ففي عصر رسول الله ﷺ لم يكن هناك سلفيٌّ أو أشعريٌّ أو ماتُريديٌّ أو معتزليٌّ أو جَهْميٌّ أو مثبتٌ أو نافٍ؛ بمعنى: أنه لم تكن تكوَّنت أسئلةٌ نظريةٌ مركَّبةٌ تستدعي حِجاجاً نظريَّاً؛ فالإسلام الأوَّل بسيطٌ يكفيه الوقوف عند المعاني الكلية، فالله منزَّهٌ عن خلقه، وما يقلق الناس ليس كيف يشرحون صفات الله تعالى، ولكن كيف يستجيبون لمطلب التسامي الأخلاقي والعمل الصالح، وكيف يعمرون الحياة.

قال أبو كيان: ومن المؤكَّد أنَّ أحداً لن يُسأل يوم القيامة عن أشعريَّته.. أو تيمِيَّتِه.. أو.. أو غير ذلك..

قال أبو زكريا: هذه أسئلةٌ وقضايا لم يتنزَّل بها الوحي، وليست مقصودةً، فغاية الوحي ليس خلق الجدل الكلامي والمبارزة بالمصطلحات؛ بل القيام بما أمر الله تعالى به من العدل والإحسان والطاعات..

قلت: إنَّ الإسلام دينٌ عمليٌّ، جاء لعامَّة البشر ممَّن لا يفكِّرون في خوض المناظرات الكلامية؛ بل يهمُّه تسيير حياتهم في الخير.. ويَسَعُ المسلم أن يعرف أنَّ هذه ليست من متطلَّبات الإسلام، فهي قضايا لم يعرفها المسلمون في عصر رسول الله ﷺ ويبحثوا فيها، وحظُّهم من الدين أعلى ممَّن خاض فيها، فهم خير القرون.

تهلَّل وجه أبي زكريا: هذا حِملٌ زائدٌ.. والحمد لله أنه ليس متطلَّباً إسلاميَّاً، وإلا لَأعجَزَنا فهم كل هذا الجدل الذي لا ينتهي.

ج. الأحزاب الدينية:

تابع أبو زكريا: وأظنُّ أنَّ ذلك ينطبق على الأحزاب ذات العناوين الدينية المعاصرة، فلا يلزم المسلم أن يكون سلفيَّاً علميَّاً، أو سلفيَّاً مَدخَليَّاً، أو من الإخوان المسلمين، أو تحريريَّاً، أو غير ذلك.. فكل ذلك ليس من متطلَّبات الإسلام ولا شرطاً للنجاة..

قال محمد: طبيعي.. فالمقصود بجماعة المسلمين هو سوادهم الأعظم.. فكل هذه الفِرَق هي بعض تجلِّيَات اختلاف وجهات النظر في قضايا نظريةٍ ما طرحت في عهد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وهي ليست قطعاً من متطلبات النجاة في الآخرة.

تبسَّم أبو زكريا: أنا أعدُّ نفسي على الإسلام الأول قبل كل هذه الإضافات.. الحمد لله.

د. الصراعات الفقهية:

قال أبو كيان: لكن ماذا عن القضايا الفقهية؟ ما الذي يجب أن يعرفه المسلم؟ وكل مذهبٍ أو اتجاهٍ له رأيٌ فقهيٌّ يرى أنه التمثيل الحقيقي للدين!؟

قال محمد: هذا خطأ شائعٌ، فالأصل أنَّ قضايا الفقه هي اجتهاداتٌ في الفهم من النصوص؛ بمعنى: أنها احتماليةٌ، وإلا لا يكون ذلك فقهاً..

فمعنى الفقه "الفهم"، وليس التطابق مع النصِّ.. فبعد وفاة رسول الله ﷺ لا يبقى إلا النظر في النصوص اجتهاداً لا يقيناً..

قال أبو زكريا: هذا واضحٌ.. ولكن في الحوارات يغيب هذا الفارق بين الاجتهاد والدين؛ بمعنى: مراد الشارع المتيقِّن.. بمعنى: أنَّ الأصوات ترتفع والغضب يسود، وكأنَّ صاحب هذا الرأي نزل عليه وحيٌ جعله يطابق معنى الشارع وفهمه..

قال محمد: الموضوع كله يتعلَّق بالمنهج الذي اختطَّه الشخص لغةً، ونحواً، وأصولاً كليةً، وقواعد فقهيةً، وكلها اختياراتٌ بشريةٌ، ولذلك تختلف أصول الفقه المعتمدة مثلاً عند الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، وتترتَّب أحكامٌ مختلفةٌ في المسألة ذاتها.

قال أبو زكريا: في كل مسألةٍ يوجد: "لا"، و"نعم"، و"لعم".

ضحك أبو كيان: فهمنا "لا"، وفهمنا "نعم"، ولكن "لعم"، ما محلُّها من الإعراب؟

قال محمد: يعني من يقول: "نعم" ولكن بشروطٍ، أو "نعم" عند الضرورة، فلا هو قال: "نعم" جازمة، ولا هو قال: "لا" جازمة.

هزَّ أبو كيان رأسه مبتسماً: "لعم".. مفيدة.. فهي منطقةٌ واسعةٌ.

قال أبو زكريا: بحسب الفهم الأوَّل لذلك الجيل الأول قبل نشوء المدارس الفقهية.. ماذا كان يجمعهم؟

قلت:

أولاً: بساطة الإسلام العملي الذي يقوم على رؤية رسول الله ﷺ وتقليده فيما يعمل، ففي الصلاة أمرهم: (**صلُّوا كما رأيتموني أصلي**).

والمسيءُ في صلاته يُنَبَّه: كما في حادثة الشخص الذي كان يقوم بحركات الصلاة بشكلٍ سريعٍ، فحثَّهُ رسول الله ﷺ على الخشوع في الصلاة.

وفي إتمام الصلاة عند الالتحاق بصلاة الجماعة: كان البعض يأتي بما فاته، ثم يكمل مع المجموع، ومَن يتمّ مع المجموع ولا يكمل النقص، حتى أتى أحدهم فدخل مع الجماعة، فلمَّا سلَّم الإمام، أتمَّ ما بقي عليه من ركعاتٍ، فأيَّد رسول الله ﷺ فعله، وأصبحت تلك حلَّاً عمليَّاً لموضوع إتمام الصلاة.

ثانياً: وجود رسول الله ﷺ هنا حسم اختياراتٍ متعددةً لصالح أحد هذه الخيارات.

قال محمد مؤكّداً: فقدنا ذلك المنحى العملي مع الزمن.. وفقدنا آلية الحسم بوفاة رسول الله ﷺ، وبالتالي أصبحنا أمام اجتهاداتٍ متعددةٍ وتفريعٍ نظريٍّ.

قال أبو كيان: تأكيداً لما تقول.. فقط انظر إلى عدد الآراء في مسألة مسح الرأس في الوضوء؛ حيث الاحتمالات لا تنتهي.

قال أبو زكريا: بالنسبة لي حلَلْتُ المشكلة باعتماد قاعدةٍ: (**فأتوا منه ما استطعتم**)، فما هو قائمٌ على الاحتمالات التي لا سبيل لحسم أحدها، عندي هو أمرٌ عامٌّ يسع المسلم فيه أيّاً من الاحتمالات..

قال أبو كيان: من العجيب أن بعض الناس يعتبر الأشدَّ والأحوطَ هو الحل.

قلت: ما زالت قاعدة أبي زكريا قائمةً، فهذا شخصٌ وضع له معيار الشدة والأحوطية.. بشرط أن لا يعتبر نفسه صاحب الحقِّ الوحيد في وضع قاعدته.. فما هو واسعٌ يبقى على سعته..

قال محمد: يعني تشديد المرء على نفسه أمرٌ يخصُّه، ولكنَّ تحويل ذلك إلى دينٍ يلزم الجميع فعلُه، تعدٍّ على الشرع والخلق.

هـ. أوضاع العالم الإسلامي والمسلمين:

قال محمد: والمُقبل على الإسلام تصعقه الفجوة بين ما يقرؤه ويتخيَّله عن عظمة الدين، وبين واقع المسلمين..

قال أبو كيان: ذهبت إلى الحج، وهالني ما رأيت من تزاحمٍ مؤذٍ، ومن قِلَّةِ العناية بالنظافة، ومن سلوكياتٍ غير حضاريةٍ تُمارَس في أطهر بقعةٍ في العالم، ويكفي أن ترى الاقتتال على تقبيل الحجر الأسود وما يحدث هناك من تدافعٍ وعنفٍ.. إنه لَأمرٌ محزنٌ..

تابع أبو زكريا: لننظر في مساجدنا هنا في بلادنا الجديدة؛ كبريطانيا، أو أمريكا، ولنرَ ماذا يواجه المسلم الجديد عندما يقرِّر الدخول في الإسلام من سوء أحوال المسلمين وتنازعهم!؟

قلت: ومع ذلك.. يصمد كثيرٌ من الجدد، ويستبقُون إسلامهم، وأظنُّ أنَّ السبب هو اختيارهم للإسلام وهم على علمٍ مُسبقٍ بأحوال المسلمين، وبعد تفكيرٍ مليٍّ وتفريقٍ بين كمالات الدين وبين ممكنات المجتمع..

قال محمد: القرآن يصف لنا مجتمع الصحابة بكل ما فيه من سموٍّ، وما فيه من نواقص بالتفصيل، فهو لم يرسم مجتمعاً ملائكيَّاً.. لكن طالَبَ المجتمع والأفراد أن يسعَوا إلى السموِّ بقدر ما تتَّسع له ثقافتهم، وإلا لَوجدنا القرآن الكريم يتكلَّم عن مجتمعٍ نموذجيٍّ لا فقر فيه، ولا جهل، ولا مرض، ولا أخطاء كبيرة ولا صغيرة، وهذا ليس هو الحال..

وما الحوار القرآني والنبوي مع المجتمع إلا عمليةٌ مستمرَّةٌ لإصلاح أخطاء قائمةٍ..

قلت: العيب ليس في وجود النقص، ولكن في عدم الاعتراف به، وعدم محاولة الارتقاء به.. ذلك هو المذموم..

تطوُّر البشرية أيضاً عنصرٌ مهمٌّ، فمعايير النظافة والجمال وحُسن الخلق والإتقان والإحسان أصبحت مُقَنَّنَةً في هذا العصر، وبالتالي أصبح الناس ينتبهون إلى الفروق الحضارية، وهذا يلقي بعبءٍ كبيرٍ على المسلمين لتغيير واقعهم، مضافٍ على أوامر رسول الله ﷺ: (**أن يكونوا كالشامة بين الأمم**)، لكن كما قلت: معظم من يدخل الإسلام يمايز بين التعاليم والحالة الحضارية للمجتمع عموماً.

وفي الختام

كانت ثمرة حواراتنا كتاباً سهلاً واضحاً عن الإسلام في بداياته الأولى، وقد حقَّق الرحمة للعالمين بصورته الحضارية الرائدة، ولكنَّ هذا الكتاب لا يشكِّل الصورة النهائية والمُخرَج النهائي، فحواراتنا لا تزال مستمرَّةً حول كثيرٍ من القضايا العالقة، التي تحتاج إلى مقاربةٍ رشيدةٍ، وتثمر مزيداً من الفهم لأدوات الدخول إلى العصر.. وكل ذلك سيتمُّ تضمينه في النسخة القادمة من الكتاب إن شاء الله تعالى.

والله تعالى نسأل التوفيق والسداد..